

التفسير التربوي

أضواء تربوية أخلاقية من وحي الآية الثانية عشرة
من سورة الحجرات

الدكتور
محمد كاظم حسين الفيلوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
جامعة الكوفة

المؤلف: الأستاذ الدكتور محمد كاظم الفتلاوي
الكتاب: التفسير التربوي /
أضواء تربوية أخلاقية من وحي الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات
الناشر: دار حدود / بيروت
الطبعة: الأولى / ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢١ م

التصميم والإخراج الفني
مكتب محمد الخزرجي ٠٧٨٠٠١٨٠٤٥٠
العراق - النجف الأشرف

الترقيم الدولي: 0 - 3 - 9613- 9922- 978 I.S.B.N.

الفهرسة أثناء النشر
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٨٥١) لسنة ٢٠٢١ م

محفوظة
جميع الحقوق

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ
بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

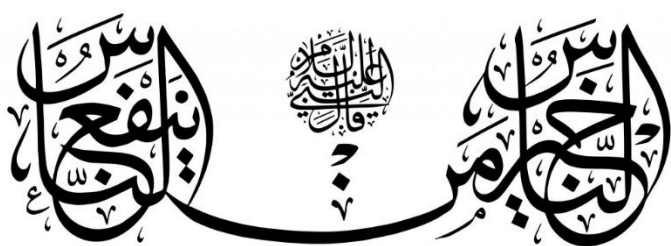
سورة الحجرات، الآية: ١٢

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ
فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

هَدَاءٌ

- إلى الإنسان الكامل والقُدوة السامية الحبيب محمد ﷺ.
- إلى أعلام الهدى والعروة الوثقى العِزَّة الطاهرة ﷺ.
- إلى المُنشرف بالنقوى والمُكرَّم بالانساب الباحث عن الحقيقة الصحابي الجليل سلمان المَحمدي [الفارسي] رحمه الله عنه.

أ.د. مُحمَّد كاظم الفستلاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله الطاهرين.

أما بعد..

معلوم ان الأخلاق التي أمرت بها التربية الإسلامية صادرة من توجيهات آيات الكتاب العزيز وأحاديث المعصوم عليه السلام، فهي بهذا ثابتة المبدأ أصيلة المصدر، فالكتاب الكريم وسنة المعصوم عليه السلام في عمقهما المعرفي والغيبى يمثلان الإرادة الإلهية الناشئ منها الإنسان في خلقه وكيونته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١) وبهذا فإن أي إنسان واعٍ حرّي أن يجتهد في الغرف من هذين الرافدين العظيمين -الكتاب والسنة- في تطبيق التعاليم النابعة منهما فهما من تعاليم الخالق عجل الخبير بعباده: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٢)، والباحث انطلاقاً من شعوره بالمسؤولية وحماسه للمشاركة في توضيح الأخلاق الإسلامية والتدابير والأساليب الوقائية التربوية المستنبطة من القرآن الكريم وسنة المعصوم عليه السلام، كان محور كتابه:

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(التفسير التربوي - أضواء تربوية أخلاقية من وحي الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات-)، وذلك من خلال استنباط التوجيهات الربانية للتربية الأخلاقية من الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات التي هي كغيرها من الآيات والسُورِ القرآنية تحملُ العديد من التوجيهات والأساليب التربوية العظيمة التي يأملُ الباحث أن يتمكن في استلهاها وتوضيحها على ضوء منهج التفسير التربوي^(١).

ومعلوم ان منهج التفسير التربوي للقرآن الكريم من المناهج الحديثة في وقتنا المعاصر كما انه يُبنى على النظرية التربوية المستوحاة من تعاليم الإسلام العامة وعلى وفق معطيات العلوم والأصول التربوية والأساليب والأهداف، بل وكل عنصرٍ تربوي علمي يدخل في إيضاح القرآن الكريم؛ إذ لا شك أن المقصد الأساس لنزول القرآن الكريم هو الهداية والإرشاد للناس كافة.

وبهذا تكمن أهمية هذا البحث^(٢) في ان التربية الإسلامية أصبحت في واقعنا المعاصر بحاجة ماسة إلى تأصيل إسلامي في ميادينها المتنوعة؛ وذلك لما يلاحظُ اليوم من وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة التي فرضت تداخلُ بين الثقافات العالمية الشرقية منها والغربية، فمن هذا المنطلق لا بدَّ من وقفةٍ حازمة من المفكرين وعلماء التربية في العالم الإسلامي لمواجهة هذا المدِّ الطاغي من الثقافة الغربية

(١) للتوسعة في منهج التفسير التربوي الاجتماعي ينظر: المؤلف، مناهج المفسرين - دراسة في النظرية والتطبيق-، ص ١٩٥.

(٢) تجدر الإشارة ان نواة هذا الكتاب كان بحث تخرج لمرحلة البكالوريوس قدمه الباحث الى قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية في كلية التربية (ابن رشد)/جامعة بغداد ٢٠٠١م، بعنوان: الآية ١٢ من سورة الحجرات -دراسة تفسيرية-، وجد من الضرورة بمكان إعادة صياغته واطرافه وتعديل ما يقتضيه المقام دون المساس بكثير من طبيعة الباحث واسلوبه أيام دراسة البكالوريوس فلكل زمان جماله.

وتداعياتها المختلفة التي لا شك أنّ لها آثاراً سلبية على الفرد والمجتمع على حدٍ سواء.

ومن أهمية هذا البحث أيضاً يرى الباحث انه يخدم موضوع التفسير التربوي، من خلال تزويد المكتبة القرآنية ببحث مختص بالجانب التربوي للتفسير بشكل عام.

سبب اختيار موضوع البحث: استنباط الحقائق والعبير والعظات الأخلاقية القرآنية بواقع حياة الناس العملية لنرى دورها وأثرها في تربية الجيل وأنفسنا والاسرة المسلمة والمجتمع، لما تتضمنه الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات من مسائل شرائع الدين التي بها تتم الحياة السعيدة للفرد ويستقر النظام الصالح الطيب في المجتمع.

ففي الآية محل البحث ثلاثة قضايا أخلاقية خطيرة تمثلت في: اجتناب سوء الظن، والتجسس، والاعتياب، وأنّ هذه الأمور الثلاثة مرتبطة فيما بينها، فسوء الظن باعث على التجسس، والتجسس باعث على كشف الأسرار وما خُفي من أمور الناس، والاطلاع عليها يستوجب الغيبة، زيادة على ذلك ان الآية لم تحظى بالتفسير والبيان الوافي فيما طالعه الباحث من مصادر.

اما منهج البحث: فكان المنهج المناسب له المنهج المعروف بالمنهج التحليلي الاستنباطي الذي يمكن تعريفه: بانه المسلك الذي يقوم فيه الباحث بإعمال جهده العقلي والنفسي عند دراسة النصوص الشرعية، رامية من هذا الجهد بيان المبادئ التربوية الأخلاقية الاجتماعية المعززة بدليل واضح.

وقد اطلع الباحث على جملة من الدراسات والأبحاث السابقة التي انتفع منها في بعض جوانب بحثه ومنها:

أولاً: دراسة عن (مدى تطبيق المدرسة للقيم التربوية المستنبطة من سورة الحجرات)^(١): كانت هذه الدراسة عن الدور الأساسي للمهمة التي يقوم عليها التعليم والتربية في البلاد الإسلامية، والذي يكمن في إنشاء أمة في إطار القيم الإسلامية، وكان فيها أيضاً عن الواقع الذي نعيشه ومدى بُعد المسلمين عن الالتزام بهذه القيم معتمداً الباحث على المنهج الوصفي، متمثلاً في الاستنباط والتطبيق، مستخدماً أداة الاستبيان كأداة رئيسية لجمع المعلومات. وخلص الباحث إلى أن سورة الحجرات تُعتبر منهجاً تربوياً، وأنها سورة مباركة مليئة بالقيم والأفكار التربوية، مع ضرورة التمسك بالقرآن والسنة قولاً وفعلاً؛ بما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ثانياً: (سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي)^(٢): كتب الباحث عن ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة، والتثبت من الأخبار، والانقياد الكامل، والتسليم المطلق لله تعالى، وقطع كل ما يثير الضغائن، وأن الأخوة الإيمانية أعلى من أخوة النسب. واستخدام المنهج الاستنباطي، ومن أدوات جمع المادة العلمية استخدم أداة التنقيب في المصادر والمراجع المختلفة. وخلص الباحث إلى أن سورة الحجرات تمثل المنهج القويم في التوجيه الرباني للمجتمع المثالي، والإشارة إلى أهم المعاني والمبادئ والأسس المستنبطة من السورة.

ثالثاً: (التربية الأخلاقية في ضوء سورة الحجرات)^(٣): هذه الدراسة قائمة على منهج التفسير الموضوعي لسورة قرآنية، والسورة المختارة هي سورة الحجرات، وضح

(١) حامد سالم الحربي، مدى تطبيق المدرسة للقيم التربوية المستنبطة من سورة الحجرات، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية التربية، مكة المكرمة، ١٣٩٦هـ.

(٢) عبد الحميد عمر الأمين، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، مكة المكرمة، ١٣٩٦هـ.

(٣) د. عبد السلام حمدان اللوح، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٤م.

الباحث فيه مكانة هذه السورة واسمها، وزمن نزولها وأسبابه، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها، ولنرى محورها الرئيس وموضوعها الأساس، وهو التربية الأخلاقية للأمة الإسلامية.

وغيرها من الدراسات والمصادر الأخرى^(١) المتعلقة بمحور بحثنا وهي أكثر من ان تستوعبه هذه الأسطر، وقد افاد الباحث منها جمعياً، ولنا عليها تعليقات وملاحظات كانت مما شجع الباحث على دراسة الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات دراسة مستقلة واستنتاقتها بشكل مركز أكثر مما لو أدرجت بين طيات الآيات الأخرى من ذات السورة.

إن بعد الوقوف على الكتب والمصادر المتعلقة بتفسير القرآن العظيم أو تلك المتعلقة بأحاديث المعصوم عليه السلام أو الأخلاقية منها، وجدتها تصف الآية محل البحث بكلمات لها وقعها بالنفوس الإنسانية من حيث الردع عن هذه الرذائل من الأخلاق المذمومة قرآناً، كما تذكر الآية الكريمة ذلك بشكل واضح، وكذلك ما ورد في سنة المعصوم كقوله (عليه السلام) في سوء الظن: (إذا ظننت فلا تحقق)^(٢) وكذا في التجسس

(١) على سبيل المثال ظ: الأوامر في سورة الحجرات، د. عبد الله بن محمد الأمين الشنقيطي، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، المجلد ٧، ع ١٤، ٢٠٠٦م، التربية الأخلاقية من خلال سورة الحجرات، الأمتن خليفة حمد بليلى، رسالة ماجستير، جامعة الرباط، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٧م، آداب وضوابط المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات، د. وسيم فتح الله، دار التوحيد، جدة، ٢٠١٨م، سورة الحجرات - دراسة تحليلية وموضوعية، د. ناصر بن سلمان العمر، دار نابلس، الرياض، ٢٠١٧م، التعامل الإنساني الخُلقي في سورة الحجرات وأثره في التعايش السلمي (دراسة حجاجية)، د. بشائر أمير عبد السادة وآخر، مجلة جامعة بابل (العلوم الإنسانية)، المجلد ٢٥، ع ٧، ص ٣٢٤٣.

(٢) بحار الانوار، المجلسي، ٣٢٠/٥٥.

كان قوله (ﷺ): (من اطلع عليك فحذفته بحصاة ففقأت عينه فلا جناح عليك)^(١)، وأما بخصوص الغيبة فقوله (ﷺ): (والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الآكلة في الجسد)^(٢)، وكذلك قوله (ﷺ): (ما النار بأسرع بالييس من الغيبة بحسنات العبد)^(٣) والأحاديث والوقائع مستفيضة بخصوص الغيبة وذمها وعواقبها، ولهذا كان التركيز على بيان قبح هذه الرذيلة التي كادت ان تكون فاكهة المجالس.

ويرى الباحث ان التوغل بهذا البحث ومضامينه يجعل الإنسان أكثر حرصاً على دينه وحسناته ومن هم حوله من بني جنسه، ويكون على بينة من أمره كلما جرفته الدنيا أو ركنت إليها نفسه إذ ان (رأس كل خطيئة حب الدنيا)^(٤) فكانت هذه الأوراق ملاذني لنفض الغبار عن الروح وإن كان غليظاً وهذه الوقفات ما هي عندي إلا فيوضات إلهية تستدعي مني الشكر عليها والحمد للباري سبحانه، وأدعوه أن يوفقني في حياتي وأن يجعل هذه الأوراق حسنة جارية حين مماتي.

المستفيد من الدراسة:

يستفيد من هذه الدراسة كل من كان حريصاً على أمر دينه متبعاً ما أمر الله تعالى به وما نهى، طالباً لسمو نفسه من حيث التخلي عن الأخلاق الذميمة وراجياً التحلي بالأخلاق الحميدة، كل من كان في سن التكليف المدرس والطالب، العامة والخاصة، وذلك لأن الدراسة تبحث في ميدان مهم جداً من ميادين التربية، ألا وهو الميدان الأخلاقي، الذي لا غنى لأحد عنه، فالجميع في حاجة إليه، وفي كل زمان

(١) مسند احمد، احمد بن حنبل، ٢/٢٤٣.

(٢) الكافي، الكليني، ٢/٣٥٧.

(٣) التفسير المبين، محمد جواد مغنية، ص ٥٨٧.

(٤) الكافي، الكليني، ٢/٣١٥.

ومكان، لا سيما وأن الموضوع مستنبط من كلام الله الحكيم الخبير ومن آياته المنزلة على خير خلقه النبي الخاتم صلى الله عليه وآله، وليس مستوحاة من الفكر البشري المحض.

ومما يجدر ذكره ان هذا البحث افتح للباحث آفاق جديدة، وإن كانت تحمل بين طياتها عناء التعب، وكذلك أسفٌ شديد لما فاتته من الزمن وهو بعيدٌ عن مثل ما حصل عليه من معلومات نافعة كان لها الأثر في تهذيب النفس، ومما هون الخطب استشعاره بمتعة الفائدة.

اما **خطة الكتاب** فكانت من مقدمة وثلاثة فصول، الفصل الأول منها كان بعنوان: في رحاب سورة الحجرات، والفصل الثاني اختص لبيان الآية محل البحث وتحليلها بآراء المفسرين فيها، والفصل الثالث بعنوان الآثار التربوية في (سوء الظن والتجسس والغيبة)، وكان تحت كل فصل عدة مباحث يأتي تفصيلها في فهرس الكتاب بإذن الله تعالى.

**** والله الحمد أولاً وآخرًا ****

**** حرر في الثلاثين من شهر رمضان المبارك لسنة ١٤٤٢ للهجرة على مهاجرها
التحية والسلام ****



محمد كاظم حسين الفتلاوي

بغداد

وَكُلُّكُمْ رَاكِعٌ أَوْ مُسْكِنٌ

الفصل الأول

في رحاب سورة الحجرات

في هذا الفصل سيكون كلامنا عن الإطار العام للسورة والمضمون الذي احتوته وعلى النحو الآتي:

أولاً: اسم السورة:

تتألف سورة الحجرات من ثمانية عشرة آية وهي سورة مدنية^(١) وقد حكى القرطبي (ت: ٦٧١هـ) الاجماع على ذلك^(٢)، وأسمها (الحجرات) بضمتي جمع حجرة - بسكون الجيم - والمراد بها بيوت أزواج النبي ﷺ^(٣)، وهو مكان رفع الصوت بالنداء لرجل من وفد بني تميم للنبي ﷺ من وراء الحجرات^(٤).

يقول القاسمي (ت: ١٩١٤م): (وسميت بها لدلاله آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم، ولا يحترمه غاية الاحترام، وهو من أعظم مقاصد القرآن)^(٥).

(١) ظ: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٨٦/٧.

(٢) ظ: الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٥/١٦.

(٣) ظ: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٦٤/٩.

(٤) كان منهم الصحابي عمر بن الخطاب، ظ: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥٥٥/٩.

(٥) محاسن التأويل، ٣٦٧٣/٩.

وأود ان اشير في هذا المقام الى التوجيه الى ان هذا الأدب لا يقتصر على رفع الصوت الحسي في حضرة النبي الأكرم ﷺ لا سيما ونحن نعلم ان من أساليب الخطاب الشرعي التنبيه بالأدنى على الأعلى، بمعنى إنه إذا كان مجرد رفع الصوت الحسي محرماً ومدعاة لحبوط الأعمال كما هو الظاهر من النص القرآني: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١) فلأن يرفع الإنسان صوت عقله وافكاره قبال ما جاء به النبي ﷺ أشد حرمة وقبحاً في ميزان الشرع، فلا شك ان هذا الأدب الحسي منبه على ما هو فوقه من الآداب، تماماً كما أن تحريم قول أفٍ للأبوين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لهما أَفٌّ وَلَا نَهْزُهما وَقُلْ لهما قَوْلاً كَرِيماً﴾^(٢)، فنلاحظ انه دال على تحريم ما هو فوقه من ضرب وأذى معنوي وإن لم تصرح الآية بذلك.

مع الاخذ بنظر الاعتبار ان حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حياً لا فرق في ذلك فيما تقدم من الالتزام بالآداب الأخلاقية في حضرته، كما كان يكره في حياته، وبهذا قال العلماء: (يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حياً وعند قبره ﷺ)^(٣).

وَدَفَعُوا إِلَيْهِمْ أَعْيُنَهُمْ

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٢٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٧٠/٤، ط: تفسير محاسن التأويل، القاسمي، ٣٦٧٦/٩، صحيح البخاري، البخاري، ١٢١/١.

ثانياً: مضمون السورة العام:

ان المتأمل في مضمون هذه السورة يجدها تذكر الكثير من الضوابط والآداب التي تحكم سير المجتمع الإسلامي بما يضمن له الانضباط والانقياد لإمرة هذا الدين العظيم.

يقول المفسر القرطبي (ت: ٦٧١هـ): (كان العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب، فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق، ورعاية الآداب)^(١).

لهذا كانت أغلب سور القرآن الكريم تحمل المقاصد الرئيسة في تهذيب الأخلاق والدعوة الى اللياقة واللف في القول والسلوك ومنها سورة الحجرات، يقول القاسمي (ت: ١٩١٤م): (وقد انفردت هذه السورة بآداب جليلة، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه ﷺ من التوقير والتبجيل)^(٢).

وتضمنت السورة أوامر ونواهي صريحة في الفاظها غير قابلة للتأويل فيما يجب وما لا يجب في التعامل مع القائد الإلهي وكذلك الأمر بالتزام الصدق في الحديث وفي نقل المعلومة وعدم نقلها جزافاً بلا تحقيق وتقصي، ونأي النفس عن سلوكيات بعيدة عن تعاليم السماء ولا تمت الى منبع الفكر الإسلامي بصلة، وبهذا المعنى يقول ابن عاشور (ت: ١٩٧٣م) عن مقاصد سورة الحجرات: (تتعلق أغراضها بحوادث جدت متقاربة كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي ﷺ) في معاملته وخطابه وندائه دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وقد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول من بيوته،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٣٠٠/١٦.

(٢) محاسن التأويل، ٣٦٧٣/٩.

ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به والتثبت في نقل الخبر مطلقاً وأن ذلك خلق المؤمنين ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين^(١).

فسورة الحجرات إذن هي سورة الأخلاق، ومحورها يدور حول هذا الموضوع، وسنرى من خلال استعراض الآية الثانية عشر منها مدى ارتباطها بهذا الموضوع الرئيس والمحور الأساس.

ثالثاً: فضل سورة الحجرات:

معلوم ان لسور القرآن الكريم فضائل تعارف عليها من خلال أقوال المعصوم عليه السلام وهذه الفضائل تنم عن مقام كل سورة من سوره، ومن هذه السور سورة الحجرات المباركة التي ورد في حقها كم ليس بالقليل من الفضائل نختصر القول فيها على جملة من الأحاديث التي منها ما ورد عن النبي الخاتم صلوات الله عليه وآله في فضل تلاوتها إذ نلاحظ فيه انها تضاعف الحسنات فقد ورد عن أبي بن كعب (ت: ٣١هـ) عن النبي صلوات الله عليه وآله قال: (من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه)^(٢).

وفي الترغيب على تلاوتها ان قارئها يكون رفيق الأنبياء عليهم السلام وهو الواضح في حديث الإمام علي عليه السلام إذ قال: (من قرأها كان في الجنة رفيق سليمان بن داود عليه السلام، وله بكل آية قرأها مثل ثواب المحسنين إلى عيالهم)^(٣).

(١) التحرير والتنوير، ٢٦/٢١٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ١٠/ ١٢٨.

(٣) بصائر ذوي التمييز لطائف الكتاب العزيز، ١/ ٤٣٥.

بل ان في فضلها زيارة النبي ﷺ ومعلوم لما في زيارة الحبيب محمد ﷺ برد لقلوب محبيه، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: قال: (مَنْ قرأ سورة الحجرات في كل ليلة أو في كل يوم كان من زوار النبي محمد ﷺ) (١).

رابعاً: تناسب السور لما قبلها وما بعدها وآخرها بأولها:

تناسب السور والآيات من الموضوعات التي شغلت علماء التفسير والبيان، وفي إطار الحديث عن تأملات في سورة الحجرات نلاحظ ان التناسب بين سورة الحجرات مع السورة التي قبلها وهي سورة الفتح، والسورة وما بعدها سورة ق.

أولاً: تناسب السورة لما قبلها؛ جاء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢) بعد سورة الفتح التي سجّلت صلح الحديبية الذي خفيت حكمته على جميع الصحابة فكان التقديم بهذه الحادثة بمثابة البرهان والدليل والحجة عليها (٣).

إذ ان سورة الفتح تحدثت عن الصحابة في نهايتها وذلك في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٤) أما سورة الحجرات فقد بدأها الله ﷻ بالخطاب الموجه إلى الصحابة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ

(١) بحار الانوار، المجلسي، ٣/٨٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١.

(٣) ظ: الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٦١٨/٨.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

وَرَسُولِهِ، سورة الفتح تصف الصحابة وهم في ظرف الحرب أما الحجرات فترشد الصحابة إلى الوضع الذي يجب أن يكونوا عليه في ظرف السلم^(١).

فأواخر سورة الفتح تضع الأسس التي يقوم عليها المجتمع الإيماني فوصف أخلاق الأفراد في هذا المجتمع وأخلاق قائدهم فناسب أن يفتتح سورة الحجرات بتوقير وبيان مكانة القائد في المجتمع لأن هذا القائد إنما يتبع المنهج الرباني الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لخلقه وأمرهم بالسير عليه حتى يكونوا من الفائزين في الدنيا والآخرة. والفتح الذي تحقق والذي ذكرته سورة الفتح ما كان ليتحقق لولا أن هؤلاء المؤمنين وقرؤا رسولهم وقائدهم ﷺ وانصاعوا لأوامره راضين وقالوا لكل أمر أمرهم به سمعنا وأطعنا دون مناقشة أو تردد وهذا بعد فضل الله عز وجل ونصره لهم من أهم أسباب تماسك المجتمع الإيماني في مواجهة أعدائه، أن يكون لهم قائد يوجههم وأن ينقادوا لأمره راغبين واثقين غير مذبذبين.

ثانياً: مناسبة السورة لما بعدها: لما ختم تعالى سورة الحجرات بإحاطة العلم، افتتح السورة التي بعدها بحرف "ق"، إشارة إلى أنه وحده المحيط علماً وقدرة وفتحاً لما أراد من المغلقات^(٢)، أقول: لما أمر الله ﷻ في سورة الحجرات بمحاسن الأخلاق وعظيم الآداب، ونهى عن أرذلها وحذر منها، ناسب أن يذكر في التي بعدها قدرته سبحانه على البعث بعد الممات، وما بعده من حشر وحساب وجنة ونار، فقد جمعت الترغيب والترهيب، الترغيب بالجنة والجزاء الحسن لمن تخلق بأخلاق سورة الحجرات، والترهيب بالنار والعذاب لمن تهاون في أوامر الله، وتخلق بغير خلق القرآن المجيد^(٣).

(١) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والصور، البقاعي، ٣٤٩/٨.

(٢) ظ: الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٦١٨/٨.

(٣) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والصور، البقاعي، ٢٤٢/٧.

ثالثاً: مناسبة نهاية السورة بأولها: ختم الله السورة بعلمه لغيب السماوات والأرض وإحاطته بكل عمل سواء في السر أو العلن، لأن في ذلك أعظم زجر وترهيب لمن قدم بين يدي الله ورسوله، ولو أن تقدمه في سره، فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم، فكأنه قيل: لا تقدموا بين يديه، فإن الله عليم محيط العلم، فهو يعلم سركم وجهركم، فقد رجع هذا الآخر على الأول، والتف به التقاف الأصل بالموصل^(١).

خامساً: القراءات

- الحُجَرَات:

١- قرأت (الحُجَرَات) الجيم بالفتح - عند الإمام محمد الباقر عليه السلام.

٢- وقرأت (الحُجَرَات): عن ابن أبي عبله.

وقرأت (ولا تجسّسوا)، (ولا تجسو) عند البيزي.

وكذلك قرأت (ولا تحسسوا) عند الحسن وأبو رجاء وابن سيرين.

ونسبها ابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ): إلى النبي صلى الله عليه وآله ولا تجسسوا ولا تجسّوا / سواء والتجسّ - البحث يقال رجل جاسوس^(٢).

وقال رؤية (ت: ١٤٥هـ)^(١):

(١) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٢٤٢/٧.

(٢) ظ: معجم القراءات القرآنية، مع مقدمة في القراءات، د. أحمد مختار وآخر، ١١٨٥/٦، النشر

في القراءات العشر، الدمشقي (ت: ٨٣٣هـ)، ٣٧٦/٢.

لا تمكن الخناعة الناموسا وتحصب اللعابه الجاسوسا

حصب الغواتِ العومج المنسوسا

وذهب بالقول إن الجاسوس والناموس واحد، إلا أن هناك ثمة فرق بين (الناموس والجاسوس)، وهو إن الناموس صاحب سر الخير والجاسوس صاحب سر الشر.

و(التجسس) من (الجس) باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتلمس.

وقرأ (التجسس) بالحاء من الحس وهو أثر الجس وغايته، ولذلك قيل للحواس الجواس، والتتبع^(٢).

(ولا تجسسوا) قرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين - تحسسوا - بالحاء وهو بالخير، والجيم بالشر، وقيل صاحب سر الشر وصاحب سر الخير^(٣) - كما تقدم - كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾^(٤).

وقال آخر: (التحسس بالحاء أن تستمع الأخبار بنفسك، وبالجيم أن تتفحص عنها بغيرك)^(٥).

(١) ديوان (الرؤية)، ص ٧٠ - ٧١، ديوان العجاج ص ٤٨، واللسان عجاج، مجاز القرآن: أبي عبيدة النيمي. اللغة (العومج) الحية، والمنوس: السيل وإنما سميت عوجاً لأنها تعج أي تجيء على غير قصد، ص ٢٢٠ ويقال: تعمج السيل، قال العجاج: (تدافع السيل إذا تعمجا)، ديوانه، ص ٤٨.

(٢) ظ: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ص ٦٨٤.

(٣) ظ: تفسير الكشاف، الزمخشري، ص ٣٧١.

(٤) سورة يوسف: الآية ٨٧. ظ: التسهيل لعلوم التنزيل، جرير الكلبي، ٦٠/٤.

(٥) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، ابن النحاس، ص ٤٥.

وقيل: (بالحاء أن تسمع ما يقول أخوك فيك، وبالجيم أن ترسل من يسأل لك عما يقال لك في أخيك من السوء)^(١).

وقال أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ): (الفرق بين التحسس والتجسس: التحسس - بالحاء المهملة -: طلب الشيء بالحاسة، والتجسس - بالجيم - مثله. وفي الحديث: (لا تحسسوا، ولا تجسسوا). قيل: معناهما واحد، وعطف أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين)^(٢).

وقيل: التجسس - بالجيم - البحث عن عورات النساء، - وبالحاء - الاستماع لحديث القوم، ويروى أن ابن عباس سئل عن الفرق بينهما فقال: (لا يبعد أحدهما عن الآخر: التحسس في الخير، والتجسس في الشر)^(٣).

وذهب ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) الى تبني القول بأن اللفظ بالحاء غالباً ما يكون بالخير، وإن اللفظ بالجيم غالباً ما يكون بالشر^(٤). ولعل سبب هذا الرأي هو ما لحظه ابن كثير في ان لفظ (تجسسوا) ولفظ (تحسسوا) وردا تارة بقصد الخير وتارة بقصد الشر في بعض الأحاديث النبوية والتي منها قوله ﷺ: (ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تتاجسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً)^(٥).

(١) عمدة القاري، العيني، ٢٠ / ١٣٣.

(٢) الفروق اللغوية، ص ١١٨.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ٥ / ٤٤٢.

(٤) ظ: تفسير القرآن العظيم، ٦ / ٣٨٠.

(٥) صحيح البخاري، البخاري، ٧ / ٨٩، صحيح مسلم، مسلم القشيري، ٨ / ١٠، وبحسب تتبع الباحث لم يلحظ هذا الحديث أو على شاكلته في المصادر الحديثية عن الشيعة الإمامية.

ويمكن ان نضيف ان الذي دعا لهذا الخلاف في اللفظ (تحسسوا وتجسسوا) هو ان القرآن الكريم في العهد الأول من صدر الإسلام لم يكن منقط الكلمات.

إلا ان الذي يميل إليه الباحث هو ان (التحسس) في يكون في أمور الخير، و(التجسس) يكون في أمور الشر، وهو الظاهر من الاستعمال القرآني.

أثم (إن بعض الظن اثم) أي (يثم الاعمال) أي بكسرها - والهمزة فيه بدل من الواو^(١).

سادساً: أسباب النزول

نزلت الآية محل البحث في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدمهما إلى المنزل فيهيئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب. فضم الصحابي (سلمان المحمدي - الفارسي-) إلى رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمان إلى المنزل، فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ شيئاً لهما فلما قدما، قالاه: ما صنعت شيئاً، قال: لا؛ غلبتني عينا فممت.

قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً.

فجاء سلمان (رض) إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً. فقال رسول الله ﷺ: انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له إن كان عنده فضل طعام وأدم فليعطك، وكان أسامة خازن النبي ﷺ على رحله فأتاه، فقال: ما عندي شيء. فرجع سلمان إليهما فأخبرهما.

(١) ظ: الكشاف، الزمخشري، ص ٣٧١.

فقالا: كان عند أسامة، ولكن بخل فبعث (سلمان) إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً، فلما رجع قالوا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر به لهما رسول الله ﷺ.

فلما جاء إلى رسول الله ﷺ. قال لهما رسول الله ﷺ: مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما.

قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يوماً هذا لحماً.

قال: ظللتما تأكلان لحم (سلمان وأسامه).

وهذا السبب هو ما أجمع عليه المفسرون في تفاسيرهم إلا ان بعضهم ذكر اسماء الصحابة صراحة وبعضهم اكتفى بالتلميح دون التصريح ومع هذا فانهم لم يذكروا اشخاص غير الصحابة الواردة اسمائهم في سبب النزول للآية الكريمة محل البحث^(١).

سابعاً: الإعراب

يا: حرف نداء.

أيها: أي: منادى مبني على الضم والهاء للتنبيه.

(١) والرجلان هما: (أبي بكر وعمر). ظ: تفسير الدر المنثور، السيوطي، ٥٧٢/٧، مجمع البيان في تفسير، القرآن الطبرسي، ١٣٥/٥، تفسير الكشاف، الزمخشري، ٣٧٤/٤، لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، ١٨٢/٤، الجامع لأحكام، القرآن القرطبي، ٣٣١/١٦، روح المعاني، الآلوسي، ١٥٩/٢٦، السراج المنير، الشربيني، ٧٠/٤، الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ٣٣٦/١٨، التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ١٣٣/١٠.

الذين: اسم موصول مبني على الفتح وفي محل رفع عطف بيان.

آمنوا: آمن: فعل ماضي مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، وواو الجماعة ضمير متصل في محل رفع فاعل.

اجتنبوا: اجتنب: فعل أمر مبني على حذف النون والواو ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل.

كثيراً: مفعول به منصوب، علامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

من الظن: من حرف جر، الظن اسم مجرور بحرف الجر وعلامة جره الكسرة الظاهرة في آخره.

إن: حرف مشبه بالفعل.

بعض: اسم (إن) منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

الظن: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة في آخره.

إنّ: خبر (إن) مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

ولا تجسسوا: الواو: حرف عطف. لا: حرف نهى جازم، تجسسوا: فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة. والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. والجملة الفعلية (لا تجسسوا) معطوفة على جملة (اجتنبوا).

ولا يغب: الواو حرف عطف. لا: حرف نهى جازم. يغب: فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه السكون.

بعضُكم: بعضُ: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره. وهو مضاف. و(الكاف) ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه و(الميم) للجمع.

بعضاً: مفعولٌ به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

يُحبُّ: الهمزة للاستفهام، يُحبُّ: فعل مضارع مرفوعٌ وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

أحدُكم: أحدُ: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وهو مضاف و(الكاف) ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. و(الميم) للجمع.

أن: مصدرية ناصبة.

يأكل: فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو).

لحم: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

أخيه: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الستة وهو مضاف والهاء ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه.

ميتاً: حال من (لحم) أو من (أخيه)^(١) منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

(١) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، ص ١١٧٠. ينظر: إملاء ما من به الرحمن، ٢/ ١٢٩.

فكرهتموه: الفاء: رابطة. كره^(١): فعل ماضي مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل. والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل (والميم) للجمع و(الواو) للجمع أيضاً. و(الهاء) مفعول به.

وتقوا: الواو حرف عطف. (اتقوا): فعل أمر مبني على حذف حرف النون. والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل.

الله: لفظ الجلالة: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره. وجملة (واتقوا الله) معطوفة على جملة (اجتنبوا) السابقة.
إن: حرف توكيد ونصب مشبه بالفعل.

الله: لفظ الجلالة اسم (أن) منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.
تواب: خبر (إن) أول مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.
رحيم: خبر (إن) ثانٍ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره^(٢).

ثامناً: اللغة والبلاغة

جتنبوا: أي ابتعدوا، وذلك أبلغ من قولهم اتركوه^(٣).

الظن: الظن ينقسم إلى قسمين:

(١) ظ: التبيان في إعراب القرآن للعكبري، ص ١١٧٠، المعطوف عليه محذوف تقديره عرض عليكم ذلك فكرهتموه، والمعنى بعرض عليكم فتكرهونه، وكذلك ينظر جامع أحكام القرآن للقرطبي، ٣٤٠/١٦.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم، محمد افهم أبو شيبة، ٦٨٦ - ٦٨٧.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٦٩٢/١.

الظن المحرم: هو ظن السوء بأهل الخير والصلاح والأمانة والتقوى ومن عُرف عنهم الستر، كاتهامهم وتخوينهم ورميهم بالسوء والفحشاء.

الظن غير المحرم: هو ظن السوء بأهل الكفر والغش والضلال والفجور مما عرفوا بذلك واشتهروا به، فجاهروا بالخبائث التي ارتكبوها كدخول الحانات والخروج منها، وشرب الخمر، وسائر دروب الريب والشبهات التي أمر كل مسلم أن يتجنبها^(١).

إثم: الإثم الذنب، وقيل هو أن يعمل ما لا يحل له^(٢).

واما اللفقات البيانية فنلاحظها على النحو الآتي:

١ - في قوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ نلاحظ التكرير في هذه الآية: والسر فيه إفادة معنى البعضية للإذن بأن ما في الظنون ما يجب أن يُجتنب من غير تبين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد تأمل وبعد نظر وتمحيص واستشعار للتقوى والحذر من أن يكون الظن طائش السهم بعيداً عن الإصابة، وما أكثر الذين تسول لهم ظنونهم ما ليس واقعاً، ولا يستند إلى شيء من اليقين^(٣).

٢. في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ وفيه معان:

أحدهما: في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإنه للعموم في الحقيقة كقوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وأما من اغتاب فالمغتاب أولاً يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن

(١) ظ: جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ٢٥٢/١، تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٣٢/١٦.

(٢) ظ: لسان العرب، ابن منظور، ٢٨ / ١.

(٣) ظ: إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، ٢٧٤-٢٧٥/٩.

يغتتاب فلم يقل ولا تغتابوا انفسكم لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه، والعيب حامل على العيب.

ثانيهما: لو قال القائل المعنى كان حاصلاً بقوله: لا تغتابوا مع الاقتصار عليه نقول: لا، ولذلك لأن الممنوع اغتتاب المؤمن فقال (بعضكم بعضاً) وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يُذكر بما فيه عند الحاجة.

ثالثهما: قوله تعالى: ﴿...أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ دليل على أن الاغتتاب الممنوع اغتتاب المؤمن لا ذكر الكافر، ولذلك لأنه شبه بأكل لحم الأخ. وقال من قبل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فلا اخوة إلا بين المؤمنين، ولا منع الأمن شيء يشبه أكل لحم الأخ ففي هذه الآية نهي عن اغتتاب المؤمن دون الكافر.

رابعهما: ما الحكمة من هذا التشبيه؟

نقول هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه. وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يُحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى لأن ذلك ألم. وقوله [لَحْمَ أَخِيهِ] أكد في المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو، فقال أصدق الاصدقاء من ولدته أمك. فأكل لحمه أقبح ما يكون.

(مَيْتًا) إشارة إلى دفع وهم وهو ان يقال القول في الوجه يؤلم فيحرم، وأما الاغتتاب فلا اطلاع عليه للمغتتاب فلا يؤلم، فقال أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم! ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه، وفيه معنى: وهو الاغتتاب كأكل لحم الآدمي ميتاً، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة (وهو تشبيهه ضمناً وصاغها بالاستفهام التوبيخي البشع)، والمضطر إذا

وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي، فكذلك المغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب، وقوله تعالى: (مَيْتًا) حال عن اللحم أو عن الأخ، فإن قيل اللحم لا يكون ميتاً، قلنا بلى. قال النبي ﷺ: (ما أبين من حي فهو ميت) فسمي الغفلة ميتاً، فإن قيل إذا جعلنا حال عن الأخ لا يكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حالاً، كما يقول القائل: مررت بأخي زيد قائماً، ويريد كون زيدا قائماً، قلنا يجوز أن يقال من أكل لحمة فقد أكل، فصار الأخ مأكولاً مفعولاً، بخلاف المرور بأخي زيد فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثماً - أي وهو آثم - أي صاحب الوجه كما أنك إذا ضربت وجهه فقد ضربته، ولا يجوز أن نقول: مزقت ثوبه آثماً، فتجعل الإثم حالاً من غيرك، وقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: العائد إليه الضمير يحتمل وجوهاً:

الأول: وهو الظاهر أن يكون هو الاكل، لأن قوله تعالى: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ﴾ معناه أوجب احدهم الاكل، أن مع الفعل تكون للمصدر، يعني فكرهتم الأكل.

الثاني: أن يكون هو اللحم، أي فكرهتم اللحم.

الثالث: أن يكون الميت في قوله (مَيْتًا) وتقديره: أوجب احدهم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه فكأنه صفة لقوله (مَيْتًا) ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير.

المسألة الثانية: الفاء في قوله تعالى (فَكَرِهْتُمُوهُ) تقتضي وجود تعلق - فما ذلك؟

نقول وجوه:

أحدها: أن يكون ذلك تقدير جواب كلام كأنه تعالى لما قال (أوجب) قيل في جوابه ذلك.

ثانيها: أن يكون الاستفهام في قوله (أحب) للانكار، كأنه قال: لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه فهنا لا يحتاج إلى إضمار.

ثالثها: أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب، وترتيبه عليه كما تقول: جاء فلان ماشياً فتعب، لأن المشي يورث التعب، فكذا قوله (ميتاً) لأن الموت يورث النفرة إلى حد لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيت فيه ميت، فكيف يقربه بحيث يأكل منه، ففيه إذاً كراهة شديدة، فكذلك ينبغي أن يكون حال الغيبة ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ عطف ما تقدم من الأوامر والنواهي^(١).

فيلحظ الزمخشري أن في قوله تعالى: ﴿أَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرَهُتُمُوهُ﴾ مبالغات كثيرة منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ومنها اسناد الفعل إلى أحدكم والاشعار بأن أحد من الاحديين لا يحب ذلك ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتاً، ومنها إنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخاه^(٢).

٢- الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: فقد شبه من يغتاب غيره بمن يأكل لحم أخيه ميتاً، وفيها من المبالغات ما يلي:

أ- الاستفهام الذي معناه التقرير، كأنه أمر مفروغ منه مبتوت فيه.

(١) ظ: تفسير مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣٤/٢٧، معاني القرآن، الفراء، ٧٣/٣، البحر المحيط، ابو

حيان، ١١٥/٨، تفسير القرآن العظيم، رشيد الخطيب الموصلي، ١٢٩/٨.

(٢) ظ: التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي محمد بن أحمد بن جري، ٦١/٤.

ب- جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة.

ج- إسناد الفعل إلى كل أحد للإشعار بأن أحداً لا يحب ذلك لنفسه ولا لغيره.

د- إنه لم يقتصر على تمثيل الاغتيا بأكأ لأم الإنسان وهو أكره اللوم وأبعثها على التقزز، بل جعله أخاً له.

هـ- إنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً^(١).

٣- قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ معناه فقد كرهتموه، واستقر ذلك، وفيه معنى الشرط، أي إن صح هذا فكرهتموه^(٢).

٤- الترتيب (علاقة الغيبة بالتجسس وسوء الظن) إن مما يلفت النظر أن الآية الكريمة التي نعيش في ظلالها نهت عن سوء الظن والتجسس والغبية، فبدأت بتحريم سوء الظن، وانتهت بتحريم الغيبة، وتوسطت بتحريم التجسس، فهل هناك علاقة بين الأمور الثلاثة؟

إن المتأمل لأحوال الناس الذين يقعون في هذه الآفات المهلكات، يجد أن ترابطاً بين الظن والتجسس والغبية، بل إن كل أمر يسلم إلى الذي يليه في الغالب، فإذا ظن أحد بالآخر ظناً سيئاً، أخذ يبحث عنه ويريد أن يتحقق منه، وهذا هو التجسس الذي نهت عنه الآية، وهو البحث عن عيوب الناس، فإذا تحقق ظنه السيء بعد بحثه السيء بوجود العيب الذي كان يبحث عنه، أخذ يذكره للناس وهذه هي الغيبة، فسوء الظن يؤدي إلى التجسس الذي يؤدي إلى الغيبة^(٣).

(١) ظ: إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، ٢٧٤/٩ - ٢٧٥.

(٢) ظ: تفسير الكشاف، الزمخشري، ٣٧٣/٤.

(٣) ظ: في ظلال سورة الأخلاق، أبو فارس، ص ١٢٤.

إِفْجَاءُ رَبِّهِ
بِقَلْبِهِ سَلِيمٌ

الفصل الثاني

البيان التحليلي للآية الكريمة

في هذا الفصل نحاول ان نسلط الضوء على بيان وتحليل الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١). مستعيناً بذلك بالآراء التفسيرية للمفسرين، جاعلاً من سنة المعصوم عليه السلام دليلاً في فهم معاني مفردات الآية وعلى النحو الآتي:

علاقة هذه الآية الكريمة بما سبق من الآيات: بعد أن بينت الآيات السابقة القيم الإيمانية الحقيقية في ميزان الله تعالى والتي يجب أن تسود بين أفراد المجتمع الإسلامي، عن طريق استجاشة شعور الأخوة الإيمانية، وتحذير المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم^(٢)، تضع هذه الآية الكريمة سياقاً آخر في المجتمع الفاضل الكريم حول حرمة الأشخاص وكرامتهم وحياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينقون مشاعرهم وضمائرهم بأسلوب مؤثر وعجيب.

ومضة في نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

الآية محل البحث نلاحظها تبدأ بذلك النداء الحبيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتكرير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه فائدة بلاغية لطيفة، وهي إظهار الشفقة على

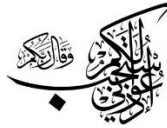
(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٢) ظ: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٣٤٥.

المسترشد، وإبداء المناصحة له على أكد وجه، ليقبل على استماع الكلام، ويعيره باله، ولتحديد المخاطبين بالذات، وأنهم هم المعنيون بالمناصحة، وفيه أيضاً استدعاء لتجديد الاستبصار والתיقظ والتنبه عند كل خطاب^(١).

كما ان هذا النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من النداءات المهمة في القرآن فعندما تبدأ الآية الكريمة بهذه العبارة.. فإنها نداء للمؤمنين.. فسبب التكليف هنا هو الإيمان .. فالله ﷻ لا يكلف كافراً أو غير مؤمن.. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا.. فمادام العبد قد آمن فقد أصبحت مسؤولية حركته وقراراته في الحياة عند ربه.. ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة.. أما الكافر فلا يكلفه الله بشيء.

وبهذا نداء يتشرف به كل من آمن بالله تعالى وبتعاليم القرآن واتباع النبي ﷺ، إذ في مضمونه: يا عبادي الذين آمنوا، خطاب للجميع للرجال والنساء. وان ما يعقبه أمر أو نهى يتعلق بتنظيم الحياة، قال ابن مسعود (ت: ٣٢هـ): (إذا سمعت يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك" لماذا؟ لأنه بعدها إما خيراً تؤمر به وأما شراً تحذر وتُنهى عنه)^(٢). كما أن هذا النداء يتضمن معنى لطيفاً، وذلك بأن المنادي هو رب العالمين جل جلاله، وعادة المنادي يكون مقبلاً لا مدبراً، فكأن المعنى (يا مؤمن الله يناديك فأقبل عليه) والإقبال من الله يريد إقبالاً منك. فإذا استشعر القارئ هذا المعنى تحرك الإيمان في قلبه وشعر بأهمية النداء وأهمية ما سيأتي بعده.



(١) ظ: إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، ٩ / ٢٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١ / ٦٤.

علاقة الإيمان بالأخلاق:

تُعد الأخلاق في الإسلام من المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم، ويتميز هذا النظام الإسلامي في الأخلاق بطابعين:

الأول: أنه ذو طابع إلهي، بمعنى أنه مراد الله سبحانه وتعالى.

الثاني: أنه ذو طابع إنساني، أي للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية.

وهذا النظام يتكامل فيه الجانب النظري مع الجانب العملي منه، ومن ثم ان رقابته (لا توجد في السماء فقط، وان جزاءها فيما وراء الموت، إذ إنها تخول هذه الصلاحيات في الوقت نفسه لقوتين مؤثرتين أيضاً هما: الضمير الأخلاقي، والسلطة التشريعية، وليس ذلك فحسب، بل إنها تكلف كل فرد في الأمة أن يحول بكل الوسائل المشروعة دون انتصار الرذيلة والظلم)^(١)، وبهذا فالأخلاق ليست جزءاً من النظام الإسلامي العام فقط، بل هي جوهر الإسلام ولبه وروحه السارية في جميع نواحيه، إذ النظام الإسلامي - على وجه العموم - مبني على مبادئه الخلقية في الأساس، بل إن الأخلاق هي جوهر الرسائل السماوية على الإطلاق.

كما أن الأخلاق في الإسلام ليست لوناً من الترف يمكن الاستغناء عنه عند اختلاف البيئة، وليست ثوباً يرتديه الإنسان لموقف ثم ينزعه متى يشاء، بل إنها ثابته

(١) الخطاب الأخلاقي في القرآن الكريم، المؤلف، ص ٢٥٤.

شأنها شأن الأفلاك والمدارات التي تتحرك فيها الكواكب لا تتغير بتغير الزمان لأنها الفطرة: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِينَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(١).

وان الأخلاق وكل تعاليم الإسلام الواردة في (الكتاب العزيز وسنة المعصوم) تمثل منظومة متكاملة مترابطة مع بعضها وبكل اجزائها وتفاصيلها سواء في العبادات والمعاملات بل وحتى في الجانب الغيبي النفسي نلاحظ هذا الترابط وانعكاساته على الفرد والمجتمع، وان الناظر لحال أولئك الناس الذين تجد عندهم معاناة في أخلاقهم ومعاناة في تعاملهم وفي تواصلهم مع الناس إما أن تراه كئيماً تعيساً ثقیلاً النفس وكأن روحه أثقل من الرحي! واما أن تراه نقده ينتقد كل شيء ويدقق في كل شيء، ويحل كل شيء فتتأزم وأنت تتعامل معه، واما أن تراه سبباً شتاماً مجادلاً بذئ اللسان واما أن تراه متوتراً غصباً مندفعاً قد يضيق ويتضجر ويتعكر مزاجه وينقلب في لحظات.

الآن هذا الضيق وهذا الضجر وهذا التوتر الذي يظهر في أخلاقه من أين جاء؟ وما هو مصدره؟؟

إنه من ضيق القلب، فالله إذا قبض القلوب ضيقها: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَسْطُ وَيُخَوِّضُ وَيُجْعِلُ﴾^(٢)، وهذا القبض الذي في القلب ربما ابتلي به الإنسان بسبب تقصيره أو تفريطه في حق من حقوق الله تعالى من تضييع للصلاة أو هجر للقرآن أو بعدم الإقبال على الله، أو تركاً للطاعة ونحوها... فغير الله تعالى عليه حاله من البسط الى القبض، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣).

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

ان علاقة الأخلاق بالإيمان علاقة طردية، فإذا زاد الإيمان، ارتقت الأخلاق وقربت من الكمال بنفس قدر زيادة الإيمان، وإن ضعف الإيمان ضعفت الأخلاق، لأن الإيمان قوة عاصمة عن دنيا الأمور، دافعة إلى المكرمات، فضعف الخلق دليل قاطع على ضعف الإيمان، وقد يؤدي إلى فقدانه. فالرجل الصفيق الوجه المعوج السلوك، الذي يقتترف الرذائل، غير آبه لأحد يكون بعيد عن الإيمان، يقول رسول الله ﷺ في وصف هكذا سلوكيات: (الحياء والإيمان مقرونان في قرن فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه)^(١).

وهكذا إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم التي تتادي المؤمنين، نجد أن الله عجل يربط الإيمان بالتكليف، سواء كان في العبادات أو المعاملات أو الأخلاقيات أمراً كان أو نهياً، لأن تنفيذ هذه الأمور التكليفية مناطها الإيمان الصادق، وعنوانها الأخلاق النابعة من الإيمان، ويضبط هذا المعنى قوله ﷺ: (إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)^(٢).

أولاً: سوء الظن:

هو أول أمر نلاحظه في الآية محل البحث هو اجتناب كثير من الظن، فتأمر المسلمين باجتنب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهياً لكل ما يهيج فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر: (إن بعض الظن إثم) فإن إحياء هذا التعبير للضمير وهو اجتناب الظن السيء أصلاً، لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثمًا، بهذا يُظهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء فيقع بالإثم، فهذه هي التربية الإسلامية القرآنية ولكي يعيش المجتمع سالمًا نفسيًا.

(١) الكافي، الكليني، ١٠٦/٢، القرن: حبل يجمع به البعيران.

(٢) المصدر نفسه، ٩٩/٢.

وحتى وان بدت النفس تلوح بظن السوء فعلى الإنسان ان لا يفسح المجال لها في ان يتحول الظن من خيال وخواطر الى واقع عملي من خلال التحري، والعلامات التي تكون في خلجات النفس ولا تبقى مجرد خواطر وحديث النفس، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألفة والمحبة إلى الكراهة والنفرة، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافه.

ودليل ذلك بقول المصطفى ﷺ: (إذا ظننت فلا تحقق)^(١)، ومعنى هذا أن يظل الناس ابرياء مصونة حقوقهم وحياتهم واعتبارهم.

وهذا الاحتراز التشريعي فاق التشريعات الوضعية فأقصى ما تتعجب به أحسن البلاد الديمقراطية هو حرية وصيانة حقوق الإنسان فيها، وهذا المدى هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وطبقه الأفراد مع أنفسهم وعليه قام المجتمع الإسلامي فعلاً وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير.

والاجتناب هنا هو لظن السوء بالمسلمين وأما ظن الخير فهو حسن، وقيل الإثم هو هنا الكذب لقوله ﷺ: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)^(٢) لأنه لا يكون مطابقاً للأمر الواقعي، وقيل إنما يكون إثماً إذا تكلم به وإذا لم يتكلم به فهو في فسحة لأنه لا يقدر على دفع الخواطر واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة سد الذرائع في الشرع لأنه أمر باجتناب كثير من الظن^(٣).

(١) كنز العمال، المتقي الهندي، ٢٨/١٦.

(٢) مسند احمد، احمد بن حنبل، ٢٨٧/٢، ميزان الحكمة، الريشهري، ٣٩٠/١.

(٣) ظ: التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، ٦١/٤.

واستناداً إلى حديث آخر للنبي ﷺ حين نظر للكعبة قال: (مرحباً بالبيت ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله؟! والله للمؤمن أعظم حرمة منك، لان الله حرم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: ماله، ودمه، وأن يظن به ظن السوء)^(١).

فلاحظ ان اجتناب سوء الظن ليس دعوة لمكارم الأخلاق بل هو أمر واجب الالتزام إلى عدم سوء الظن بأهل الخير الذين ظهر منهم الصلاح والرشاد من المسلمين المؤمنين، وأما من يلبس الريب - ويجاهر بالخبايا فلا يحرم الظن به^(٢) وإن لم يره الظان متلبساً بها^(٣).

ومما تقدم نستطيع ان نستشعر الفارق بين سوء الظن والاحتراز فالإنسان المحترز يخالط الناس بالإحسان ولا يرتب أثر نفسي او سلوكي اتجاه الآخرين ولكنه يأخذ بأسباب العدة والتأهب كالذي يكون في حذر من قطاع الطرق وضعاف النفوس، وأما سوء الظن فقد تبين ان صاحبه في حذر من الناس مريض القلب قد ظهر في الفاظه سوء الحديث والتجريح ومن ثم عدم الألفة والتباغض.

إذ ان من خلال ظن السوء تقطع أواصر المحبة وينفقد الودّ، وينعدم التعاون ولا يحترم الآخر، فكان لزاماً على المسلم المؤمن ان يبتعد عن كثير من الظن حتى تستقيم الأمور، وأن يفسح المجال للثقة ان تقوى، وان لا تصدر الاحكام الاجتماعية جزافاً بمجرد الظن، فالخطأ وارد، والنسبية غير محسومة فلا بد من التحقق الواضح البين.

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٧١/٦٤.

(٢) ظ: زبدة التفسير من فتح القدير، محمد سليمان عبد الله الاشر، ص ٦٨٦.

(٣) ظ: البيان في تفسير القرآن، الطوسي، ٣٥٠/٩، صفوة البيان في تفسير القرآن، حسنين محمد مخلوف، ص ٦٥٨.

ثانياً: التجسس

والأمر الثاني هو التجسس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتتاب الظنون (ولا تجسسوا) والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والإطلاع على السوءات.

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، ليظهر القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سواتهم.

مؤكد إن للناس حرياتهم وحرمااتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا تمس بحال من الأحوال. ففي المجتمع الإسلامي يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر في النظام الإسلامي مهما يكن لانتهاك حريات الانفس تحت ذريعة التجسس على الناس، فالناس يتعامل معهم على ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم.

عن زيد ابن وهب قال أتى عبد الله بن مسعود (ت: ٣٢هـ)، ف قيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس ولكن يظهر لنا شيء نأخذه^(١).

وعن مجاهد (ت: ١٠٤هـ): (لا تجسسوا) خُذ بما ظهر لكم، ودعوا ما ستر الله^(٢).

وعن دجين كاتب عقبة قال: قلت: لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرطة فيأخذونهم، قال: لا تفعل ولكن عظمهم وتهدهم.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ١٨ / ٣٣٧.

(٢) ظ: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ٢١ / ٣٧٥.

قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاء دُجَيْن فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا واني داع لهم الشرطة فتأخذهم. فقال عُقْبَةُ: ويحك لا تفعل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موعوده من قبرها)^(١).

إذن النهي شديد في الابتعاد عن الخُلُق الذميمة المتمثل في التجسس على الآخرين ومهما كانت هذه المسميات الداعية الى التجسس على خصوصيات الآخرين سواء كانت تحت عنوان الفضول او الاطلاع فهي نابعة من أمراض نفسية ونفس خبيثة بعيدة عن اللياقة والتهذيب، والتحذير منه لخطر عواقبه على جميع أفراد المجتمع، وما ينهانا المشرع إلا لتحقيق مصلحة عظيمة ودفع خطر لا تقف أضراره على حدٍ معين، قال رسول الله ﷺ: (إياكم والظن لأن الظن اكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ...) ^(٢).

والمتنبع للمنظومة الأخلاقية في التربية الإسلامية يلحظ ان الإسلام ليس لم يأمر باجتنب التجسس فحسب، بل أمر بالستر وحث عليه، ورغب فيه، واتخذ وسائل من أجل ذلك، فشرع حدَّ القذف، حتَّى لا يُطْلَق كُلُّ أحد لسانه، وكذا أمر في إثبات حدَّ الزَّنى بأربعة شهود وبكيفية دقيقة جداً، كما نهى عن أن يتجسس المسلم على أخيه، كما توعَّد بالعذاب لكل من يشيع الفاحشة في المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٣).

(١) مسند احمد، احمد بن حنبل، ١٥٣/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٨٧/٢.

(٣) سورة النور، الآية: ١٩.

وفي سنة المعصوم عليه السلام نهى واضح في ان يبتعد المسلم عن خلق التجسس وتتبع شؤون الغير، بل فيها ترهيب وتوعد يدخل ضمن السنن الإلهية في معاقبة المتطفلين وأصحاب النفوس المريضة، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله): لا تطلبوا عثرات المؤمنين فإن من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثراته ومن تتبع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته)^(١).

نعم في الحديث أعلاه إشارة ان عند المؤمنين عثرات فكل ابن آدم خطأ، ولا عاصم إلا من عصم ربي وقليل من هم، وان من تتبع هذه العثرات ممن لم يرسخ الإيمان في نفسه وانتهك الحرمات وانقاد مع هوى نفسه ظاناً انه باكتشاف عثرات الآخرين قد نال الحظوة والتسديد، إلا ان هذا المسكين غفل ان الله تعالى من سننه (كما تدين تدان) إذ نلاحظ في الحديث أعلاه ان الله تعالى توعد بنفسه ان لا يمرق الأمر بلا حساب دنيوي في ان يتتبع عثرات هذا الخاوي المتطفل على الآخرين وان يهتك عليه الستر ولو كان محصن في بيته، ناهيك عما هو أعظم من ذلك وهو العقاب يوم الفرع الأكبر.

وعليه إن صون حرمة المؤمن واجب شرعي، وأدب أخلاقي كريم، لا سيما في أثناء غيبته، قال الإمام علي عليه السلام: (حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة)^(٢).

والإنسان المسلم الذي يعلم قدر بيت الله الحرام ومقامة وما فيه من الشعائر والتشريعات يستوعب القصد من ان حرمة المؤمن أعظم وأخطر من حرمة بيت الله العتيق، ومن ثم عليه ان يكون برحاب الانسان المؤمن على هيبة ووجل مراعيًا الفاظه

(١) الكافي، الكليني، ٣٥٥/٢.

(٢) بحار الانوار، المجلسي، ٧١/٦٤.

صاماً لمسامعة وإن بدت عن طريق الصدفة بعض عثرات الآخرين أمامه، مطبقاً نظره احترازاً عن مساوئ وعيوب الآخرين، ناهيك عن حرمة النية في تتبعها ابتداءً.

وإن من معاني التجسس هو عدم اجتناب الإنسان مجلساً غير مرحب فيه، أي غير مأذون له الاستماع فيه لحديثهم، فإن ذلك يدخل في التجسس وإن كان وجود الإنسان ظاهراً غير متخفياً إلا أنه من التجسس المحرم شرعاً، قال الأوزاعي (ت: ١٥٧هـ): (ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون)^(١).

وفي تفسير (ولا تجسسوا): فيه وجهان (أحدهما) هو أن يتبع عثرات المؤمن، قاله ابن عباس (ت: ٨٦هـ) ومجاهد (ت: ١٠٤هـ) وقتادة (ت: ١١٧هـ).

(الثاني) هو البحث عما خفي حتى يظهر، قاله الأوزاعي^(٢).

فالتجسس طلب ماخفي محرم وإن كان ظاهره تطبيق الحدود الشرعية، فعن الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) قال: قيل لعمر بن الخطاب إن فلاناً لا يصحوا، فقال انظر إلى الساعة التي يضع فيها شرابه فائتني فأتاه فقال قد وضع شرابه فانطلقا حتى استأذنا عليه فعزل شرابه ثم دخلا فقال عمر والله أني لأجد ريح شراب يا فلان أنت بهذا؟

فقال يا ابن الخطاب وأنت بهذا، ألم ينهك الله أن تتجسس، فعرفها عمر فانطلق وتركه^(٣).



(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ٩/٣٦٩٣. ظ: الكشف، الزمخشري، ٤/٣٧٢.

(٢) ظ: تفسير الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، ص ٥٦٨.

(٣) الاكليل في استنباط التنزيل، جلال الدين السيوطي، ص ١٩٧.

ثالثاً: الغيبة:

ونتكامل سلسلة التأديبات الرفيعة ليكون المسلمون بها مثال لمكارم الأخلاق منزهين عن سيئاتها ومكروهااتها الخاصة والعامة ففي مشهد قرآني آخر يقول تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ نلاحظ تعبير قوي لاذع بسبيل تعظيم إثم غيبة الناس واستنكارها.

ففي هذا المشهد تتأذى له اشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية مشهد يأكل الأخ لحم أخيه (ميتاً) ثم يُبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز. إنهم إذن كرهوا الاغتيا ب.

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى والتلويح لمن اقتترف من هذا شيئاً أن يبادر إلى التوبة ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس، وإلى أدب عميقاً في النفوس والقلوب ويشدد رسول الله ﷺ فيه متماشياً مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفرع من شبح الغيبة البغيض^(١)، ففي الحديث المروي عن رسول الله ﷺ قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: (ذكرك أخاك بما يكره).

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول!

قال ﷺ: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتّه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه^(٢).

(١) ظ: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٣ / ٥٣٥.

(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٢٨١/١٢، ظ: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٨٨/٥.

فذكر الإنسان المسلم في حال غيبته - أي غير حاضر في المجلس - فإذا كان هذا الذكر في أمر معروف عند الحاضرين المستمعين ومما يُعرف به المسلم الغائب فليس ذلك الذكر من الغيبة في شيء، وأما ان كان ذلك الذكر موجود عند ذلك المسلم الغائب ولكن ليس معروفاً به عند السامعين ومما يكره ذكره به ويزعجه فإن ذلك الذكر هو الغيبة المحرمة وان المستمع والقائل ممن اقترفوا ذنباً عظيماً وهو مجلس يبيغضه الله ورسوله، واما ان كان ذكر المسلم الغائب بشيء ليس موجود أصلاً فيه فذلك يتعدى الغيبة الى البهتان والأفك، وهو اشنع قبحاً فهو بذلك جمع رذيلتين هما الغيبة والافتراء، قال الإمام علي عليه السلام: (مَنْ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا عَرَفَهُ النَّاسُ لَمْ يَغْتَبِهِ، وَمَنْ ذَكَرَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ اغْتَابَهُ وَمَنْ ذَكَرَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَهُ)^(١).

وقد أوجز الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ) وغيره تعريفاً للغيبة مفاده: (ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه)^(٢).

وهذا التعريف موافق ومستتبطن من قول المعصوم عليه السلام، والحكمة هاهنا هو ما يكون فيه الذكر بعيداً عن مسوغات الغيبة التي ستمر علينا ان شاء الله تعالى.

وقد عُرِفَت الغيبة في تفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً، ويؤول إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق لما تجاهر به، والغيبة تفسد أفراد المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطه عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه وبمازجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنساناً سوياً يأنس به ولا يكرهه ولا يتقذره،

(١) الكافي، الكليني، ٣٥٨/٢.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ٩ / ١٣٧.

وأما إذا عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك ضعفت رابطة الاجتماع فتكون كالأكلة التي تأكل جنمان من ابتلى بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة وسوء السريرة وكدر الالتقاء.

إذ إن الإنسان إنما يعقد الاجتماع والمجلس ليعيش فيه بهوية اجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمارجه فيفيد ويستفاد منه، وغيبته بذكر عيب لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية وفيه تنقيص واحد من عدد أفراد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فساداً ويذهب الأُنس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء.

فهي في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها ومن حيث لا يشعر به، ولو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرز منه وتوقى انتهاك ستره وهو الستر الذي ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان ونواقصه ليتم به ما أراده من طريق الفطرة من تآلف أفراد الإنسان وتجمعهم وتعاونهم وتعاضدهم، وأين الإنسان والنزاهة عن كل عيب^(١)!..

فعلى المسلم وإن حسنت نيته وصفت سريره أن يكون حذراً من فلتات لسانه عند ذكر مسلم غائب، فتحذرنا آيات الذكر الحكيم من أن على الألفاظ حساب، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٢)، ولهذا تنتظفر الآيات مع سنة المعصوم ﷺ للحذر من الوقوع بالغيبة ومطباتها، وإن لا يتحقق فينا ذلك التشبيه الذي تشمئز منه النفس الإنسانية السليمة ناهيك عن الروح المؤمنة، كما عن حال مرتكبها وعذابه

(١) ظ: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٣٢٧/١٨، الغنية لطالبي طريق الحق، الكيلاني، ٥٩٩/١.

(٢) سورة ق: الآية ١٨.

بها يوم القيامة مما تقرف النفس السليمة منه، قال الإمام علي عليه السلام: (اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار)^(١). والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم. ومنه قول الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن يهدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا^(٢)

وقال قتادة كما يتمتع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً لكراهية الطبع كذلك يجب أن يتمتع من غيبته لكراهية العقل والشرع لأن دواعي العقل والشرع أحق بالاتباع من دواعي الطبع^(٣).

وفي كلام آخر للنبي صلى الله عليه وآله حول ما قالت عائشة عن صفية: حسبك من صفية كذا وكذا (تعني قصيرة) فقال النبي صلى الله عليه وآله: (لقد قلتي كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)^(٤) وبلغ آخر الفظي فلفظت بضعة لحم.

وقد صاغ القرآن العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي، للتنبيه على مكان الغفلة عن قبح الخصلة وبشاعتها فقال: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ثم أَرَدَفَ الإنكار بما لا نزاع فيه وهو تقرير القبح وقال ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ومن أساليب القرآن أن يذكر هو الجواب بعد الاستفهام إذا كان معلوماً ومسلماً به، كما في قوله تعالى:

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٨ / ١١٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ٩ / ١٣٧.

(٤) مسند احمد، احمد بن حنبل، ١/١٨٩، الدر المنثور، السيوطي، ٦/٧١. في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٣/٥٣٦.

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ...﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وكذلك قوله: ﴿فَكِرْهُتُمُوهُ﴾.

فأفاد أن كراهة مثل ذلك أمر مقرر لدى النفوس، فيجب أن تكون فضاغة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً، على طريقة قياس النظر فقد نبه النفوس إلى ما لا تتكرر قبحه وبشاعته، ثم قاس عليه ما لم تكن تنتبه له، لأنها قد استساغته وألفته بتأثير العادة والتكرار والكناية بأكل اللحم عن الغيبة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يُحذر ويخاف منه، فأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وغضب الله وعذاب الله وقاية، وهذه الوقاية هي: فعل الطاعات واجتناب المعاصي باختياركم وإبرادنكم، وتتقون الله في المحظورات والمشتبهات بأداء الفرائض وترك المحرمات.

فأي عمل يأتي به المسلم يجب أن يكون مسبوق بنية التقوى وهو القرب لله تعالى والتزام شرعة من أوامر ونواهي لوجهه الكريم لا لمتع الحياة الدنيا والمحاباة للبشر أو الرياء وكثير من الآفات النفسية المبطله لأجر العمل والقرب لله ﷻ، ولا شك أن التقوى من أعلى مراتب العبودية بل أصلها وأساسها وذلك لأن العمل إذا لم يكن فيه التقوى فهو مما لا خير فيه بل لا يقبل أصلاً لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، وهو يدل بالمفهوم على أن العمل لا يقبل من غير المتقين وهو كذلك، وكذلك ورد الحث عليها في الآيات القرآنية والاحبار المروية بما لا مزيد

(١) ظ: تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، ١٣٠/٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

عليه. والتأكيد على "التقوى" عقب الامتناع عن (ظن السوء والتجسس والغيبة) قد يشير إلى ضرورة تنزيه النية وإخلاص القصد عند الابتعاد عن هذه المعاصي، وإلى حسن الظن بالآخر بما تمليه الحكمة والفطنة وواقع الحال، وتجنب التجسس والتطفل على الآخرين، ومقت الغيبة والنفور منها وهجر مجالسها امتثالاً للأمر القرآني ... فكل هذه الصفات تجتمع في عنوان التقوى.

وظاهره عطف على قوله: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن﴾، فاتقوا الله أيها الناس، فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن أحدكم بأخيه المؤمن ظن السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستره من أمره، واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شينه وعييه وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم.

إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقتربونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أن الله كثير القبول للتوبة، رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به.

أي إن الله تعالى راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن لا يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه ^(١).

وإن كان هو التجنب عنها والتورع فيها وإنما لم يكونوا يقتربونها وأراد بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة والضياع رحيم بهم ^(٢).

^(١) ظ: جامع البيان، الطبري، ٣ / ١٣٨.

^(٢) ظ: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ٣٥١/٩، الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٣٢٨/١٨.

وذلك أن التوبة من الله توبتان:

١. توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق بالتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾^(١).

٢. وتوبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة وقبول التوبة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾^(٢).

عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ قال: نكره ذلك. قال: (فانتقوا الله في الغيبة)^(٣).

إنَّ التقوى بداية القول والفعل ومنتاهما، والمحرك لهما هو النية الخالصة لله تعالى، والقائم بالفرائض مندفع من نية التقوى، قال رسول الله ﷺ: (اعمل بفرائض الله تكن أتقى الناس)^(٤)، وتتحقق التقوى باستحضار مخافة الله ورقابته في السر والعلن، وحفظ حواسك عن كل ما يغضب الله، فلا ترى عينك ما يغضب الله، ولا تسمع أذنك إلا ما يحبه الله، والامتنال لأوامر الله واجتناب نواهيه، والحرص على فعل الخيرات والمسارة إليها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

(١) سورة التوبة: الآية ١١٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٩.

(٣) تفسير مجاهد، ص ٦٠٧، ظ: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ١٦٧، تفسير السراج

المنير، الشريبي، ٧١/٤.

(٤) الكافي، الكليني، ٨٢/٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

الفصل الثالث

الآثار التربوية في (سوء الظن والتجسس والغيبة)

في هذا الفصل سنحاول بيان المفاهيم الهامة التي اشتملت عليها الآية الثانية عشر من سورة الحجرات التي هي (سوء الظن والتجسس والغيبة) وبيان الآثار التربوية على الفرد والمجتمع، وعلى النحو الآتي:

أولاً: سوء الظن:

معنى الظن في اللغة والاصطلاح:

ظَنُّ الشَّيْءِ ظَنًّا: علمه بغير يقين، وقد تأتي بمعنى اليقين. وفلاًئاً. وبه اتهمه. والظُّنَّة: التهمة. والظَّنَّين: المتهم الذي تظن به التهمة، ومصدره الظنة، والجمع الظنن. ورجل ظنين: متهم من قوم أظناء^(١).

سوء الظن في الاصطلاح: هو عدم الثقة بمن هو لها أهل.

من آثار سوء الظن على الفرد والمجتمع:

١. سبب في وجود الأحقاد والعداوة: فإن الظن السيئ يزرع الشقاق بين المسلمين، ويقطع حبال الأخوة، ويمزق وشائج المحبة، ويزرع العداوة والبغضاء والشحناء.

(١) ظ: لسان العرب، ابن منظور، ٢٧٣/٣.

٢. من أساء الظن أساء العمل: وهو الملحوظ في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾^(١)، إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق، فأساء الظن فأساء العمل^(٢).

٣. يورث الإنسان الأخلاق السيئة: سوء الظن يورث الإنسان الأخلاق السيئة كالجبين والبخل والشح والحقد والحسد والتباغض قال الإمام علي عليه السلام: (الجبين والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله عز وجل)^(٣).

٤. سبب في مرض القلب، وعلامة على خبيث الباطن: ان الإنسان الذي ديدنه اساءة الظن بالآخرين متتبع لعيوبهم فاعلم أنه (خبيث الباطن وأن ذلك خبيثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق)^(٤).

٥. سبب في استحقاق لعنة الله وغضبه: قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٥).

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

(٢) ظ: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ٤٥٧/٢١.

(٣) ميزان الحكمة، الريشهري، ٣٧٠/١.

(٤) الغزالي، احياء علوم الدين، ٣٦/٣.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٦.

٦. سبب للمشكلات العائلية: فمن أسباب المشاكل العائلية سوء الظن من أحدهما وغضبه قبل التذكر والتثبت؛ فيقع النزاع وربما حصل فراق، ثم تبين الأمر خلاف الظن.

٧. يكدر صفو الحياة الخاصة للفرد ويجعله إنسان غير مستقر ومضطرب.

وللظن أنواع، وهذه الأنواع هي:

ما هو واجب، ومنه ما هو حرام ومنه ما هو مباح.

١- **فالمحرم:** كسوء الظن بالمسلم المستور الحال، الظاهر العدالة، كما ذكرنا سابقاً الحديث النبوي الشريف (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ...) وفي حديث آخر قوله ﷺ: (إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء) واعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول أما الخواطر معفو عنه.

٢- **الظن الواجب:** يكون فيما تعبدنا الله تعالى بعلمه ولم ينصب عليه دليلاً قاطعاً فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة الصحيحة كقوله شهادة العدل وتحري القبله.

٣- **الظن المباح:** مُثْلُ له بالشك في الصلاة حين استواء الطرفين. وحرمة سوء الظن بالناس - إنما تكون إذا كان للسوء في الظن أثر يتعدى إلى الغير ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل للأمر باجتناب للظن - والاثم: الذنب الذي يستحق فاعله العقوبة عليه - والمراد من هذا البعض المذموم من الظن ما عبر عنه سبحانه - قبل ذلك بقوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي أن الكثير من الظنون يؤدي بكم إلى الوقوع في الذنوب والآثام فابتعدوا عنه.

عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث لازمات لأمتي: سوء الظن والحسد والطيرة)، فقال رجل: ما الذي يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: (فإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر الله، وإذا تطيرت فأمض^(١)).

وعليه أن في الظنون مما يجب أن يجتنب من غير تبين لذلك ولا تعيين لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله بإمارة بينه مع استشعار للتقوى والحذر والورع - ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتبياً، ما اتصف منه بالقلّة مرخصاً في ظنه والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له اشارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب لذلك لا يجوز الظن بأهل الخير والصالح لأنه محرم بخلاف من اشتهر بين الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبايا.

وبإسناد عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: (ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتبك ما يقلبك منه ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً^(٢)).

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام: (إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله، ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلمه، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن فقد غرر^(٣)).

(١) كنز العمال، المتقي الهندي، ٢٧/١٦.

(٢) بحار الانوار، المجلسي، ١٧٨/٧١.

(٣) نهج البلاغة، ص ٤٨٩.

أقول: والروايتان غير متعارضتين فالثانية ناظرة إلى الظن نفسه والأولى إلى ترتيب الأثر عليه عملاً.

الفرق بين الفراسة وسوء الظن:

قال أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ): (الفرق بين الفراسة وسوء الظن: أنَّ الفراسة ما توسمته من أخيك بدليل يظهر لك، أو شاهد يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفرس من ذلك فيه ولا تتطرق به إن كان سوءاً، ولا تظهره ولا تحكم عليه ولا تقطع به فتأثم).

وسوء الظن ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقد في نفسك عليه، أو لسوء نية تكون أو خبث حال فيك، تعرفها من نفسك فتحمل حال أخيك عليها وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم^(١).

إن من الإثم أن يتهم المسلم أخاه المسلم ويخونه، وما ذلك إلا إثم محض حري بالمسلم أن يجتنبه ويرفع عنه، ولما كانت كثرة الظنون مفضية إليه جاءت السورة بالتوجيه الرباني لتأمر المؤمنين باجتناب الظن احتياطاً لاحتمال التهمة في غير محلها، وما ذلك التحفظ والاحتياط إلا لعظم حرمة المسلم وشدة قبح هذه الرذيلة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فناسب أن يأتي أسلوب التعبير لاجتناب الكلّي لأن من جرى مع الظنون واسترسل فيها أوصلته إلى ما لا تحمد عقباه مما يآثم به حتماً، ولقد جاءت سنة المعصوم ﷺ لتؤكد هذا النهي كما تقدم ذكره. فكان هذا ابلغ ما يكون في تطهير المجتمع المسلم من هذه القبيحة.

نَبِيٌّ مِنْ رَبِّكَ يُنذِرُ لَكُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّحَابُ مَطْمَاطًا

(١) قوت القلوب، ٣٧١/٢.

طرق علاج سوء الظن، طرق علاج سوء الظن متنوعة، منها:

١. تنشئة الفرد على حسن الظن، بدءاً من الأسرة، ثم المدرسة، والإعلام، والمسجد، والأصدقاء، وذلك من خلال نماذج القدوة الحسنة في السلوك، والموعظة الحسنة، والترغيب والترهيب في التربية، والحوار الهادف مع الفرد، وغيرها من الطرق السليمة التي لها دور هام في تنشئة الفرد.
٢. سلامة الصدر من البغض، والكراهية، والغل، والحسد، ويكون ذلك بالإقبال على قراءة القرآن الكريم، وتدبره، والدعاء بسلامة القلب من الأحقاد والضغائن، وإفشاء السلام بين الناس، والابتعاد عن الوقوع في الذنوب والمعاصي، ونظر النفس إلى من هو أدنى منها، وعدم النظر إلى من هو أعلى منها في الصحة والعافية^(١).
٣. انشغال الإنسان بإصلاح نفسه واحصاء عيوبه.
٤. البعد عن مواطن الريبة والشبهات.
٥. توطين النفس وتهيئتها وتكييفها على حسن الظن.
٦. تنمية الأخوة الصادقة بين الناس.
٧. عدم تفعيل دور الاشاعة، والتثبت والتبني من الأمور، وعدم الاستعجال في الحكم عليها.
٨. اختيار الأصدقاء الصالحين، الذين يعينون النفس على طاعة الله واجتناب سوء الظن.

وبكلمة.. ان الظن والشك بالأصل عامل ليس من فطرة الإنسان السوي وهو عارض عليه، فاذا تركب فيه، يصبح خطراً حقيقياً، يهدد المفهوم الأول بين البشرية.

(١) ظ: طرق علاج سوء الظن من منظور التربية الإسلامية، سالم بن مرضي الرفاعي، ص ٤٧.

فيشوه المودة ويزرع الاحقاد والاضغان ويزيل السرور بين الناس، كما انه عامل أساسي لفقدان الراحة وجلب الهم للمرء، وهذا ما بينه الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاته: (فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونِ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ، وَمُكَدَّرَةٌ لِّصَفْوِ الْمَنَاجِحِ وَالْمِنَنِ)^(١).

فعندما تكون الامور ملقحة بالشك والظن ويكون لها غطاء عندها تحجب كل حسنة ويظهر كل قبيح ويُفصح كل مستور .

فلابد للإنسان ان يسير على المنهج السليم والتفكير القويم، تاركاً معكرات الصفو ووسوسة الشيطان، وما يلوث من فطرته السليمة، متمسكاً بالمنهج الاخلاقي السامي (حسن الظن). فما بين الحق والباطل أربع أصابع وهو ما بين المشاهدة الشاخصة ببصرك وبين الاعتماد على ما تسمعه من قول الآخرين بأذنك، قال الإمام علي عليه السلام: (ما رأته عينك فهو الحق وما سمعته أذنك فأكثره باطل)^(٢).

الحمد لله الذي
رأسوا الدنيا

(١) بحار الانوار، المجلسي، 147/91.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٦/٧٢.

ثانياً: التجسس

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ نهي صريح واضح عن التجسس.

والتجسس هو البحث بوسيلة خفية، وهو مشتق من الجس، ومن يقوم بهذا العمل يطلق عليه جاسوس. أي أن مهمة الجاسوس أن يبحث عن الأخبار الخاصة للآخرين.

معلوم إن كل إنسان له كيانه الخاص ومنه تكون له آراء خاصة، وتصرفات وممارسات خاصة، لا يحب أن يطلع عليها أحد، ولا يحق لأحد أن يهتك عليه حرمة سعيًا وراء معرفة أسرارهم وما يريد إخفاءه، هذا ما تنهى عنه الآية الكريمة.

والمسلم كائن له كرامة وقَدْر، ومخلوق صان الشرع مقامه، واحترم خصوصيته، وحماها من أذى كل مترص أو متطفل يتصيد العيوب، أَكَّدَت نصوصُ الشرع على سدِّ المسارب التي تفضي إلى انتهاك خصوصية المسلم، قال تعالى: (وَلَا تَجَسَّسُوا)^(١)؛ أي: لا تُظهِروا ما ستره الله تعالى على عباده بالبحث عن عيوبهم، وتتبع العورات، وكشف المستور، فكل مسلم حَرَمٌ في ذاته، وبيته، وسمعته، وماله، ومصالحه، هذا الأدب الرفيع يرتقي بالمسلم عن الأعمال الدنيئة، بتعقب خفايا الناس؛ كي يعيش كل فرد آمناً على نفسه، وبيته، وسِرِّه وعورته، فلنا الظواهر، ولا يجوز لنا أن نتعقب البواطن.

قال المفسر ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) وهو يتحدث عن تفسير قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾: (ولا يتتبع بعضهم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره ...^(١). ثم استشهد بحديث عن ابن عباس قال فيه: (نهى الله المؤمن من أن يتتبع عورات المؤمن).

واكد هذا المعنى المفسر البغوي (ت: ٥١٦هـ) بقوله: (نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم؛ حتى لا يظهر على ما ستره الله منها)^(٢).

وآيات الذكر الحكيم حافلة بهذا المضمون من النهي ومنها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(٣). وأي إيذاء أكبر من تتبع عورات الناس، والبحث عن سوءاتهم، والتجسس عليهم، وإظهار ما ستره الله من ذنوبهم.

إذن التجسس أذية، يتأذى به المتجسس عليه، ويؤدي إلى البغضاء والعداوة ويؤدي إلى تكليف الإنسان نفسه ما لم يلزمه، فإنك تجد المتجسس والعياذ بالله، مرة هنا وأخرى هناك، ومرة ينظر إلى هذا ومرة ينظر إلى هذا، فقد أتعب نفسه في أذية عباد الله.

وقال تعالى وهو يتحدث عن المنافقين وصفاتهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٤). أي

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ٣٠٤/٢٢.

(٢) تفسير معالم التنزيل، ٣٤٥/٧.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

ان في صفوفكم أيها المسلمون محبون لأعدائكم ويسمعون منكم وينقلون الى عدوكم، قال القرطبي: (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ أَي: عيون لهم، ينقلون إليهم الأخبار منكم)^(١).

والأصل في التجسس أنه محرم شرعاً، منهى عنه، غير أن هناك بعض الصور قد تقتضي المصلحة جوازها.

وفي ذلك يستثنى من النهي عن التجسس ما لو تعين طريقاً إلى إنقاذ نفس من الهلاك مثلاً: كأن يخبر ثقة بأن فلاناً خلا بشخص ليقترله ظملاً، أو بامرأة ليزني بها، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذراً من فوات استدراكه.

كتمان الأسرار لماذا؟

إنما يتقصد الإنسان إخفاء أشياء وجوانب من حياته لأحد الأسباب الآتية:

- إما لأنها تمثل نقاط ضعف، ولا أحد يرغب في اطلاع الآخرين على عيوبه.
- قد تكون نقاط قوة، ولكن يخشى أن يطلع عليها أحد فيفسدها أو يضرها. قد يفكر الإنسان في مشروع اقتصادي، وإذا ما أذاعه أو أذيع من قبل غيره أخذت فكرته وسبقه للعمل بها غيره، وكذلك الحال في المجال السياسي، والاجتماعي، أو أي مجال آخر، وعندنا نصوص تشجع الإنسان على كتمان أموره الخاصة.

- قد يرى الإنسان في إخفاء أموره الخاصة راحة له، كعلاقاته مع زوجته، مع أولاده، تماماً كمظهره أمام الناس، فهو يظهر أمامهم بكامل زينته، ولكنه في بيته قد يتخفف من كثير من ملابسه. وهذا حق مشروع لكل إنسان.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨ / ١٥٧، ط: تفسير معالم التنزيل، البغوي، ٥٦/٤.

التنقيب في الأسرار لماذا؟

- قد يسعى الإنسان بوسائل البحث الخفية لمعرفة أسرار وخواص شخص ما من باب التطفل والفضول، وهي عادة سيئة.
- التلصص على الآراء والأفكار وهو ما يطلق عليه التنقيش العقائدي أو الفكري، يسعى لمعرفة فلان من الناس في ماذا يفكر؟ وما رأيه في القضية الفلانية؟ من أجل تصنيفه من أي توجه هو ليتخذ منه موقفاً. يقول رسول الله ﷺ: (اني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس)^(١).
- التنقيش في نوايا الناس لا يجوز وهو يجر إلى عداوات كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: (لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق)^(٢).
- وقد يكون السبب وراء معرفة خاصيات الآخرين هو معرفة نقاط ضعفهم وعيوبهم، وهو من أشد أنواع التجسس حرمة.

وسائل التجسس:

مع تطور العلم تتطور وسائل التجسس، وقد أصبحت في متناول الجميع، وأصبحت مصدر إدانة. ذات مرة كنت أحل قضية اجتماعية بين زوجين، الزوجة كانت تقول بأن عندها شريط تسجيل يدين زوجها، والزوج كذلك يدعي تسجيلها وإدانتها، كل واحد منهما عمل فيها مخبراً على الآخر! وهذا من أسوء العلاقات الزوجية، علاقة تبدأ بسوء الظن، وتندفع إلى التجسس، وهذا حرام شرعاً.

(١) مسند احمد، احمد بن حنبل، ٤/٣.

(٢) الكافي، الكليني، ٦٥٢/٢.

لا يحق لأحد كائناً من كان أن يتجسس على غيره، لا الأب على أولاده، ولا الزوج على زوجته أو العكس، قد يستثنى جانب التربية ولكن أيضاً هناك تحذير فقد يؤدي الشك واستخدام الوسائل الملتوية إلى نتائج عكسية، وردود فعل سيئة.

الجوال (الموبايل) الذي هو في أيدي الكثير حتى الأطفال، فيه آلة تسجيل سمعية ومرئية، ولكن استخدامه من أجل إدانة الآخرين ونشر نقاط ضعفهم وعيوبهم لا يجوز. كل إنسان له الحق في إخفاء ما يريد إخفاءه وواجبك الشرعي أن تحترم هذا القرار.

من هدي الرسالة:

نصوص كثيرة وردت عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام تنهى عن التجسس وتؤكد على حرمة الناس، وحرمة التعدي عليها، ورد عن رسول الله ﷺ قوله: (يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه لا تتبعوا عثرات المسلمين فإنه من تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثرته ومن تتبع الله عثرته يفضحه)^(١).

تتبعي لنقاط ضعف الآخرين، وتتبع الآخرين لنقاط ضعفي يؤدي إلى نقشي هذا الأمر السيئ، أو أن الله تعالى وعن طريق الغيب يسلط على الجاسوس من يفضح عوراته ونقاط ضعفه كما فعل بغيره، وفي ذلك رادع له ولغيره.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: (أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل على الدين فيحصى عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يوماً ما)^(٢)، في بعض الأحيان قد يكون عندك صديق، وبحكم هذه العلاقة يطلعك على بعض أسرارهِ وخصائصهِ، ولكن البعض يسيء استخدام هذا الثقة ويفتح له سجلات لحفظ هذه الأسرار حتى إذا ما

(١) الكافي، الكليني، ٣٥٥/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٣٥٤/٢.

نشبت بينه وبين صديقه عداوة فتح سجله السري وأفشى ما فيه. وهذا من أقبح الممارسات، والإمام الباقر عليه السلام يعتبره على درجة قريبة من الكفر.

عن عبد الله بن سنان قال: قلت للإمام جعفر الصادق عليه السلام: (عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: نعم. قلت: تعني سفليه؟ أي عورته الجسدية. قال: ليس حيث تذهب إنما هي إذاعة سره)^(١).

وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام يقول: (تتبع العيوب من أقبح العيوب، وشر السيئات)^(٢)، وقال عليه السلام: (من بحث عن أسرار غيره أظهر الله أسرارهِ)^(٣).

ومن الأساليب السيئة في هذا المجال أن ترى شخصين يتحدثان ولا يريدان أن يسمع أحد حديثهما، فتوجه سمعك لتسمع ما يهمسون به. إنك كما تحب أن تحترم أسراركَ فعليك باحترام أسرار غيرك، جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون يصب الله في أذنيه الآنك)^(٤).

فليس للمسلم أن يدخل بيت غيره ليتصيد عثرات الناس أو يطلع على ما بداخلهم من عورات أو محارم سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه بل يجب عليه أن يأتي الباب ويحاول الإذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه.

(١) الكافي، الكليني، ٣٥٩/٢.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري، ٣٢٠٨/٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الخصال، الصدوق، ص ١٠٩، الآنك: الرصاص.

استثناءات في حرمة التجسس:

النصوص السابقة وغيرها الكثير تؤكد على حرمة الناس واحترام أمورهم الخاصة، ولكن السؤال هنا: هل التجسس بمطلقه حرام؟

هناك استثناءات لحرمة التجسس وأبرزها:

١. **تجسس الدولة على موظفيها في مجال عملهم:** من حق الدولة بل من واجبها أن تراقب أداء الموظفين لأعمالهم كديوان المراقبة مثلاً هذا أمر مشروع، وكان رسول الله ﷺ عندما يبعث جيشاً يعين عليه أميراً، ويعين مراقباً يتتبع أخبار هذا الأمير وطريقة إدارته ويوافي رسول الله بالخبر.

وكذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يأمر مالك الأشتر أن يراقب أداء الموظفين ويتجسس عليهم في مجال أدائهم لوظيفتهم، شريطة ألا يتعدى الأمر إلى الأمور الخاصة.

٢. **التجسس على الأعداء:** في أي عصر من العصور لابد أن يكون للدولة الإسلامية جهاز رقابي وظيفته متابعة ما يحاك للأمة الإسلامية من مؤامرات من قبل الأعداء، سواء العدو الداخلي أو الخارجي. من الخطأ أن تتعامل الأمة مع الآخرين ببساطة وسذاجة، فذلك يضعف قوتها.

٣. **التجسس على الأشرار ومن يسيئون لأمن الناس:** إذا علمت الدولة أن هناك لصوصاً وعصابات تفسد وتعتدي على أمن الناس وأعراضهم، هنا يجب على الدولة أن تسعى لكشف هذه العصابات عبر نظام معين بحيث لا تنتهك فيه الخصوصية إلا بمقدار الحاجة.

والمقصود بالأعداء هنا هم من يريدون السوء بالناس والوطن، لا من يكون عندهم رأي مخالف للدولة، المعارضة السلمية لا يجوز للدولة أن تتجسس عليهم. هناك نصوص كثيرة مضمونها أن على الوالي أن يحفظ أسرار الناس ولا يطلب معايبهم، في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشر: (وليكن أبعد رعيته منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس، فإن للناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشف عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيته)^(١).

وهذا يعني أن ليس من حق الدولة التجسس على المعايب الشخصية للريعية. إنسان يمارس ذنباً بينه وبين نفسه لا يتعدى به على حق الغير فليس من حق الدولة مراقبته ولا أي جهة من الجهات، وإن كانت جهة دينية.

وقد كتب الفقهاء بحثاً حول هذه الأمور في العصر الحديث فصار لازماً بدراسة موضوع الاستخبارات من قبل الدولة ما يجوز منه وما لا يجوز.

كتب الفقيه الشيخ المنتظري في كتابه دراسات في ولاية الفقيه، بحثاً مستفيضاً في هذا المجال، وكذلك الشيخ الفقيه جعفر السبحاني في كتابه معالم الحكومة الإسلامية، والمرجع الراحل السيد الشيرازي في كتبه عن الدولة الإسلامية وسياستها أشار إلى هذا الموضوع وأن التجسس على أسرار الناس في أصله حرام، ولكن ما يستلزمه حفظ النظام وحفظ مصلحة الدين والمجتمع والأمة فهو جائز ضمن الضوابط الشرعية.

(١) نهج البلاغة، ٨٦/٣.

ما يهمننا أكثر هو التجسس في العلاقات الفردية والاجتماعية، وقد بينا أنه أمر سيء وقبيح وحرام شريعاً وكما أكدت على ذلك الآية: ﴿ولا تجسسوا﴾ وهو نهى صريح عن فعل هذا الأمر.

إلا ان الظواهر المنتشرة بيننا اليوم هي التجسس واستراق السمع وكشف العورات بطالع الفضول والتطفل ثم القيام بنشرها عبر التقنية الحديثة وخاصة شبكة المعلومات الانترنت أو رسائل الجوال المصورة وذات الصوت مما ترتب عليه وقوع مفاصد وهتك أعراض وإشاعة الفاحشة ونشر أسرار الناس والحط من سمعة الفضلاء وتشويه صورة بعض الأشخاص بسبب عداوة شخصية أو مباحقة فكرية أو حزبية بغیضة.

وعليه فيمكننا أن نقسم التجسس على قسمين:

١. تجسس ممنوع:

ويُقصد به تتبع عورات الناس وأسرارهم، والكشف عن معائبهم؛ بدافع الفضول وإشباع غريزة حبّ الاستطلاع، دون أن يكون له غرض مباح؛ من جلب منفعة راجحة، أو دفع مفسدة متوقعة، سواء أكان ذلك بالتطفُّع، أو التنصت والاستماع.

وهذا النوع من أنواع التجسس هو الذي نصّت الأدلة الواضحة على تحريمه، ولم يبيح إلا في حالات خاصة، فإنّ الأصل في المسلم الطهارة، والعفة، والبراءة، والسلامة من كلّ شيء مشين، ولذا كان الأصل في الإسلام النهي عن التجسس بجميع صورته وأشكاله، سواء كان تجسس الفرد على الفرد، أو الفرد على الدولة، أو الدولة على الدولة؛ لأنّ التجسس انتهاك لحُرمة المسلم، وكشف ستره، وقد يسبب الحقد والبغض بين أفراد المجتمع المسلم، وهذا الذي يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً.

٢. تجسس مشروع:

وأما النوع الثاني من أنواع التجسس، وهو التجسس المشروع، فيراد به كلُّ تجسس يهدف إلى مصلحة الدولة الإسلامية في تعاملها مع أعدائها، أو تطهيره المجتمعات من أهل الشرِّ والفساد، وملاحقتهم والتضييق عليهم.

وهذا القسم من أقسام التجسس يتفاوت حكمه التكليفي من الوجوب إلى الإباحة، حسب ما تقتضيه المصلحة والضرورة، فهناك ما هو تجسس واجب وهو ما يكون طريقاً إلى إنقاذ نفس من الهلاك، أو القضاء على الفساد الظاهر. وهناك ما هو تجسس مباح، وهو ما عدا ذلك من الصور التي استثناها الشرع من التحريم، ولا تصل إلى درجة الوجوب، كالتجسس على الأعداء لمعرفة عددهم وعتادهم وغيرها.

ومعلوم ان للناس كافة أخطاء وعيوب مهما بلغوا من مبالغ العلم او التربية او الرياسة او الرمزية في أي مجال من مجالات الحياة، والتجسس عليهم والتتقيب سيجد الإنسان لا محالة عيب هنا او هناك، وان كشف وإذاعة هذا العيب سواء كان شخصي او أسري هو إعدام للشخصية المتجسس عليها ومن ثم تنهار بذلك القدوات، وتصغر في الأعين القامات، ويفقد الناس الثقة حتى في علمائهم وصلحائهم ومحبيهم؛ فقد يكون الذي تتجسس عليه قدوة وأسوة في الخير والصلاح، لكنه بشر -كما تقدم- يعتريه ما يعترى البشر من التقصير والغفلة والإساءة والنسيان... فإذا رآه المتجسس على خطأ وأذاع أمره ونشر خبره سقط من أعين الناس وتلاشت بين الناس مكانته، فحُرِّمُوا من خيره وصلاحه، ونصحه وتوجيهه...

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تُعد معايئه

التجسس داءٌ ينغص العيش ويفسد الحياة؛ حين تصبح الحياة مليئةً بالشكوك والخوفات، فلا يأمن الإنسان على خصوصياته وأسراره من أن تتكشف وتظهر للناس. بل يعيش المرء في حالة من الشك الذي لا ينتهي، والقلق الدائم الذي لا ينقضي.

ويكفي التجسس سوءاً وقبحاً أن صاحبه يُعرض نفسه لغضب الله تعالى وأليم عقابه في الآخرة، أما في الدنيا فيبقى مكروهاً مُبغضاً عند الناس، فهو دائماً في محل الريبة والشك، لا يأنس الناس به، ولا يرتاحون بحضوره.

ويكفي التجسس سوءاً وقبحاً أن صاحبه كالذباب لا يكاد يقع إلا على المستقذرات والمنتنات والمستقبحات ذوقاً وعرفاً، بل وشرعاً؛ لأنه لا يبحث إلا عن العيوب والنقائص.

ثالثاً: الغيبة

الغيبة لغةً: مصدر (غاب) واسم مصدر لـ(اغتيال) قال الجوهري: (اغتابه اغتيالاً إذا وقع فيه) والاسم الغيبة، وهو أن يتكلم خلف إنسان مستور بما يغمه لو سمعه، فإن كان صدقاً سمي غيبة وإن كان كذباً سمي بهتاناً. إذاً ذكر مساوئ الإنسان في غيبته وإن كان فيه^(١).

(١) ظ: الصحاح، الجوهري، ١/١٩٦.

وقد نقل المحقق المجلسي (ت: ١١١١هـ) كلام الجوهري وقال معقّباً: (هذا بحسب اللغة)^(١) - انتهى - ولكن يبدو بأن الجوهري ذكر المعنى الاصطلاحي لا اللغوي. لأن المعنى اللغوي لغاب واغتاب وجميع مشتقاته ليس بذلك.

وإنما هو معنى اعم من ذلك. وقد يكتب اللغويون المعنى الاصطلاحي أو الشرعي للكلمة في كتبهم. وينقل عن صاحب القاموس إن (غاب بمعنى عاب). وعن المصباح المنير (اغتابه إذا ذكره بما يكرهه من العيوب وهو حق)^(٢) وهي من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال^(٣). والمعايضة خلاف المخاطبة و(اغتابه اغتياباً) وقع فيه.

والاسم (الغيبة) بالكسر وهي أن يتكلم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه فإن كان صدقاً سمي غيبه وإن كان كذباً سمي بهتاناً^(٤).

اصطلاحاً: أعلم إن العلماء ذكروا تعاريف كثيرة للغيبة لا يتناسب عرضها ومناقشة كل واحد منها من ناحية الجامعة والشمول لكل أفراد الغيبة والمانعية. وعدم الاستيعاب لما ليس من الغيبة - مع حجم هذا البحث - إلا إذا اقتصرنا على ذكر التعاريف اجمالاً:

* أحدهما مشهور: هو ذكر الإنسان حال غيبته بما يكره نسبته إليه مما يعدها نقصاً في العُرف بقصد الانتقاص والذم.

(١) بحار الانوار، المجلسي، ٢٢/٢٢١.

(٢) ظ: النسفي، ص ١٦٦.

(٣) ظ: مدارك التنزيل، النسفي، ٤/١٦٦.

(٤) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (غينا) ص ٤٨٥.

* وثانيهما (التنبيه على ما يكره نسبته إليه وهو أعم من الأول)^(١)، وحاصل المعنى الثاني: هو التنبيه إلى ما هو كذلك. ثم إن التعريف الثاني أعم من الأول فيما كان الذكر - في الأول - بمعنى القول كما هو المتفاهم العرفي، فيكون التنبيه في الثاني أعم من القول والكنية والحكمة وغيرها كان وجه التعريف واحداً - والمستفاد من الأخبار أيضاً يدل على هذين التعريفين:

فالغيبة بحسب عرف الشرع، فهو ذكر الإنسان المعين أو من هو بحكمه في غيبته بما يكره نسبته إليه، وهو حاصل فيه، ويعد نقصاً في العرف بقصد الانتقاص والذم، قولاً أو إشارة أو كناية، تعريضاً أو تصريحاً فلا غيبة في غير معين كواحد مبهم من غير محصور كأحد أهل البلد^(٢).

وفيه قول الصحابي: (قلت: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكرت أخاك بما تكرهه. قلت: يا رسول الله وإن يكن فيه؟ قال: إن كان فيه فهو غيره وإن لم يكن فيه فقد بهته)^(٣).

ثانياً: بواعث الغيبة

اعلم إن باعث الغيبة - غالباً - إما الغضب أو الحقد أو الحسد، فيكون من نتائجها ومن رذائل قوة الغضب، وله بواعث آخر منها:

الأول: السخرية والاستهزاء: فإن ذلك كما يجري في الحضور يجري في الغيبة أيضاً.

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٧٥ / ٢٢١.

(٢) ظ: المصدر نفسه، ٧٢/٢٢١، صحيح مسلم، مسلم، ٤/٢٠٠١.

(٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ١٢/٢٨١، ظ: الفقه للمغتربين، سيد علي السيستاني، ٨/٢٢٧.

الثاني: اللعب والهزل والمطايبة: فيذكر غيره بما ضحك الناس عليه على سبيل التعجب والمحاكاة، إن باعث الهزل والمزاح متعلق بالقوة الشهوية^(١).

الثالث: إرادة الافتخار والمباهاة: فإن يرفع نفسه بتتقيص غيره^(٢)، فيقول: فلان لا يعلم شيئاً، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه وأنه أفضل منه، وظاهراً إن منشأ ذلك التكبر أو الحسد، فيكون ذلك من رذائل القوة الغضبية.

الرابع: أن ينسب إلى شيء من القبائح، فيريد أن يتبرأ منه بذكر الذي فعله، وكان اللازم عليه أن يبرأ نفسه منه، ولا يتعرض للغير الذي فعله.

الخامس: مرافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، حذراً عن تنفرهم واشتغالهم إياه لولاه، فيساعدتهم على إظهار عيوب المسلمين وذكر مساوئهم، ظناً أنه مجاملة في الصحبة، فيهلك معهم - والباعث ذلك صغر النفس وضعفها -.

بينما الحديث النبوي يقول: (من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم)^(٣).

السادس: أن يستشعر من رجل أنه سيذكر مساويه، أو يقبح حاله عند مجتمع أو يشهد عليه بشهادة، فيبادر قبل ذلك بإظهار عداوته، أو تقييح حاله، ليسقط أثر كلامه وشهادته، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد به ويقول: ليس الكذب من عادتي، فإني أخبركم قبل ذلك من أحواله كذا وكذا، فكان كما قلت، فهذا أيضاً صدق كسابقه، وهذا أيضاً منشأ الجبن وضعف النفس^(٤).

(١) ظ: جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ٣٠٩/٢، مشكاة المصابيح، محمد الخطيب، ١٣٦٠/٣.

(٢) منهاج القاصدين، بن قدامة المقدسي، ص ٢٢٢.

(٣) سنن أبو داود، أبو داود، ص ٨٨٣، مسند احمد، أحمد بن حنبل، ٤٤١/٣.

(٤) جامع السعادات، النراقي، ٣٠٩/٢.

السابع: الرحمة، وهو أن يحزن ويغتم بسبب ما ابتلي به غيره، فيقول: المسكين فلان قد غمني ما ارتكبه من القبح، أو ما حدث به من الالهانة والاستخفاف، فيقول صادقاً في اغتمامه، إلا أنه لما ذكر اسمه وأظهر عيبه صار مغتاباً. فهذا من مكائد الشيطان^(١).

الثامن: التعجب: من صدور المنكر والغضب لله عليه، بأن يرى منكر من إنسان أو سمعه، فيقول عند جماعة: ما أعجب من فلان أن يتعارف مثل هذا المنكر! أو يغضب منه، فيظهر غضبه واسمه ومنكره.

وهذه الثلاثة الأخيرة مما يصعب ادراكها، لأن أكثر الناس يظنون أن الرحمة والتعجب والغضب إذا كان لله عز وجل كان عذراً في ذكر الاسم، وهو خطأ محض، إذ المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم دون غيرها.

ثالثاً: ذم الغيبة

لما علمت حقيقة الغيبة وبواعثها فأعلم أن أعظم المهلكات وأشد المعاصي. وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجُحْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(٣).

(١) ظ: منهاج القاصدين، بن قدامة المقدسي، ص ٢٢٣، الجواهر تفسير، ٧٨/٢٣.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

وقال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: (المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)^(٢). والغيبةُ تتناول العرض.

وقال ﷺ: (إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشدُّ من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوبُ الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفرُ له حتى يغفرَ له صاحبه)^(٣).

وقال ﷺ: (مررتُ ليلةً أُسري بي على قوم يخمّشون وجوههم بأظافرهم، فقلتُ: يا جبرائيل، مَنْ هؤلاء؟ قال الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم)^(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (لا تغتب فتُغتَب، ولا تحفر لأخيك حفرةً فتقع فيها، وكما تُدين تُدان)^(٥).

وخطب النبي ﷺ يوماً حتى اسمع العوائق في بيوتها، فقال: (يا معاشِرَ من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين. ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه يتتبع الله عورته حتى يفضحه في جوفِ بيته)^(٦).

(١) سورة ق: الآية ١٨.

(٢) مسند احمد، احمد بن حنبل، ٢/٢٧٧.

(٣) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٢٢/٧٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) بحار الانوار، المجلسي، ٢٤٩/٧٢، للتوسعة ظ: أخلاق أهل البيت (ع) سيد مهدي الصدر، ص ٢٧١.

(٦) الكافي، الكليني، ٣٥٥/٢.

وخطب ﷺ يوماً فذكر الربا وعظم شأنه، فقال: (إن الدرهم يصبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثون زنية يزنيها الرجل وإن أرى الربا يعرض الرجل المسلم)^(١).

ومر النبي ﷺ على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: (إنهما ليعذبان في كبيره، أما أحدهما فكان يغتتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول)^(٢).

وأوحى الله إلى موسى ﷺ (مَنْ مَاتَ تَائِباً مِنَ الْغِيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصْبِراً عَلَيْهَا فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ)^(٣).

وقال ﷺ: (مَنْ مَشَى فِي غِيْبَةِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَوْرَتَهُ كَانَتْ أَوَّلُ خُطْوَةٍ خَطَاَهَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ، فَكَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ)^(٤).

وقال (ﷺ): (وَمَنْ اغْتَابَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بَطَلَ صَوْمُهُ وَنَقُضَ وَضُوؤُهُ، فَإِنْ مَاتَ وَهُوَ كَذَلِكَ، مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِلٌّ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ)^(٥).

وقال ﷺ: (الْغِيْبَةُ أَسْرَعُ فِي دِينِ الرَّجُلِ مِنَ الْآكَلَةِ فِي جَوْفِهِ)^(٦).

(١) إرشاد القلوب في المواعظ والحكم، محمد الديلمي، انظر رسالة الحقوق - حق السمع، ص ١٧.

(٢) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، ١/١٢٥.

(٣) مستدرک الوسائل، النوري، ٩/١٢٦.

(٤) بحار الأنوار، المجلسي، ٣/٣٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ٣/٣٦٣.

(٦) الكافي، الكليني، ٢/٣٥٧.

وقال ﷺ: (الجلوس في المسجد انتظار للصلاة عبادة، ما لم يحدث)، فقيل: يا رسول الله، وما الحدث؟ قال: (الاغتياب)^(١).

وقال ﷺ: (من اغتاب مسلماً لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه)^(٢).

وقال ﷺ: (مَنْ اغتاب مؤمناً بما فيه، لم يجمع الله بينهما في الجنة أبداً، ومن اغتاب مؤمناً بما ليس فـهـي، انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب في النار خالداً فيها وبس المصير)^(٣).

وقال ﷺ: (كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة، فاجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار)^(٤).

وقال ﷺ: (ما عمر مجلس بالغيبة إلا خرب بالدين، فنزهوا اسماعكم من استماع الغيبة، فإن القائل والمستمع لها شريكان في الأثم)^(٥).

وقال ﷺ: (ما النار بأسرع من الغيبة في حسنة العبد)^(٦).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (من قال في مؤمن ما رآته عيناه وسمعه أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾)^(١).

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٤٩/٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٨/٧٢.

(٣) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٥٨/٧٢.

(٤) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٤٨/٧٢.

(٥) المصدر نفسه، ٢٥٩/٧٢.

(٦) المصدر نفسه.

وقال أيضاً الإمام الصادق عليه السلام: (من روي على مؤمن رواية يريد بها شينة وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرج الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان)^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (الغيبة حرام على كل مسلم، وأنها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)^(٣).

وقيل لعمر بن عبيد - لقد وقع فيك فلان حتى رحماك - قال: إياه فرحموا.
وقال رجل للحسن بلغني أنك تغتابني، قال: لم يبلغ قدرك عندي أن احكمك في حسناتي.

وقال أيضاً: لو كره اخوك أن تقول: ما أشد سواد شعره - فقد أغتبتّه.
وقال النبي صلى الله عليه وآله: (والذي لا إله إلا هو ما اعطي مؤمن قط خير من الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين ...) ^(٤).

والأخبار الواردة في ذم الغيبة مما لا يكاد حصرها، وما ذكرناه كاف لإيقاظ الضمير كما ان العقل أيضاً حاكم بأن الغيبة أخبث الرذائل، وقد كان الصالحون لا يرون العبادة في الصوم والصلاة، بل الكف عن اعراض الناس، لأنه عندهم أفضل الأعمال، ويرون خلافه صفة المنافقين، ويعتقدون أن الوصول إلى المراتب العالية في الجنة يتوقف على ترك الغيبة.

(١) الكافي، الكليني، ٣٥٧/٢.

(٢) الكافي، الكليني، ٣٥٨/٢.

(٣) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٥٧/٧٢، لمزيد من التوضيح ظ: جامع السعادات، محمد مهدي

النراقي، ٣١٥/٢، الدين وتهذيب السلوك، السيد حسين الصدر، ص ١٠٩.

(٤) الكافي، الكليني، ٧٢/٢.

قال رسول الله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)^(١).
فيا أخي وحبيبي، إذا أردت أن تذكر عيوب غيرك، فاذكر عيوبك. كما قال بعضهم:

فإن غبت بالذي فيك مثله
فكيف يعيب الناس من هو أعور
وإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم
فذلك عند الله والنار أكبر^(٢)

وقال آخر:

تدلي بودي إذا لاقيتني كذباً
وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه^(٣)
وحتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب، وإذا شغلك إصلاح عيوب نفسك، كان شغلك في
خاصة نفسك، وحينئذ كنت من أحب العباد لله لقول نبينا الأكرم ﷺ: (طوبى لمن
منع عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه)^(٤). ولا يكون المنع إلا بالانشغال بصلاح
ذلك العيب.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَتْلُوهُنَّ مَوَدَّةَ بَيْنٍ وَتُغْفَرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٢١٦/١.

(٢) منهاج القاصدين بن قدامة المقدسي، ص ٢٢٣.

(٣) ظ: مجمع البيان، ٥٣٧/١٠. مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ١٣٦٠/٣.

وفيه كلام كثير.

(٤) الكافي، الكليني، ١٦٩/٨.

رابعاً: ضروب الغيبة

صريح الروايات وكلمات الفقهاء أن لا فرق في ذكر العيب بين عيب وآخر أكان باللسان أو الكتابة أو بغيره.

كما جاء بتفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١) قيل الهمزة هو الذي يعيبك بوجهك، واللمزة الذي يعيبك بالغيب وهو المغتاب، فجعل الله له الويل.

وقيل الهمزة ما يكون باللسان والعين والإشارة من العيب، واللمزة لا يكون إلا باللسان^(٢).

أكان العيب نقصاً في البدن، أو النسب، أو في الخلق، وسواء في الأقوال أو الأفعال في دين أو دنيا أو أمور ترجع إليه كاللباس والمنزل والمركب أمثال ذلك. وقد ذكر بعض لكل واحد من هذه الأمور مثلاً:

١. فالغيبة الراجعة للبدن فمثاله أن يقول فلان أعمى، أو أحول أو أعور أو أقرع أو أقزم أو أسود أو أصفر أمثال ذلك من الأوصاف التي يتأثر صاحبها لذكرها وتؤذيه.

٢. وأما الغيبة في النسب فمثاله أن يقول فلان أبوه فاسق أو خبيث أو خسيس أو حائك أو غير ذلك وأضرابه.

(١) سورة الهمزة، الآية: ١.

(٢) ظ: الكبائر من القرآن والسنة، السيد جعفر اليعقوبي الموسوي، ص ١٠٦، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ٥/٥٣٨، إياكم والغيبة، حيدر النقيب، ص ٣٨، الفقه للمغتربين، وفق فتاوي السيد السيستاني، ص ٢٢٧.

٣. وأما الغيبة في الخلق فمثاله أن يقول فلان سيء الخلق بخيل أو متكبر أو جبان أو ضعيف أو مرئي أو سارق.

٤. وأما الغيبة في سلوكه الديني فمثاله أن يقول: فلان كذاب أو شارب خمر أو يتسامح في صلاته.

٥. وأما الغيبة في سلوكه الدنيوي فمثاله أن يقول: فلان غير مؤدب، لا يعرف الحق، لا يعرف موضعه الطبيعي، ثرثار، أكول، نوام (نؤم).

٦. وأما الغيبة في اللباس فمثاله أن يقول: لباسه وسخ، عتيق، ممزق، طويل، قصير..

وهكذا في سائر الأمور الراجعة له إذا ذكرت بسوء لا يرضى صاحبه وتؤذيه فهي غيبه محرمة قطعاً.

خامساً: ما يباح من الغيبة

ذكر الفقهاء جواز الغيبة في عدة موارد نكتفي هنا بعرض بعضها:

١. التظلم: فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه، فيقول ظلمني فلان - لاسترجاع الحق - وهذا واضح من عدم انكار النبي ﷺ على قول هند بحضرته: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني إياي وولدي، فأخذ من

غير علمه؟ وقوله ﷺ: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف^(١)، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجُهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(٢).

٢. الغيبة بقصد النهي عن المنكر مع اشتراط شرائطه: بمعنى أنه إذا رأى منكراً من مسلم - وعلم أنه سوف يتركه إذا اغتابه وإذا لم يغتبه فسوف يبقى مصراً عليه - جاز له غيبته^(٣).

٣. ذكر العيب الواضح المشهور مثل غيبة الأعمش، والأحول والأعرج وأمثالهم بشرط أن لا يقصد بذلك الانتقاص منهم بل كان يقصد التعريف بهم، ويشترط أن لا يتأذى من ذلك صاحب الوصف، أما إذا كان يتأذى من ذكره بالوصف فيجب الامتناع عنه وتعريفه بوصف آخر.

٤. غيبة الضالين المضلين المبتدعين في دين الله، بقصد فضحهم لئلا يندفع الناس بهم - وتحذير المسلمين منهم، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وتخاف أن يتعدى إليه ذلك - فلك أن تكشف له الحال.

٥. رد مُدعي النسب زوراً وكذباً، من حيث أن مصلحه حفظ الأنساب أهم من مفسدة هتك المدعي.

٦. إذا رأى اثنان منكراً من شخص جاز لأحدهما نقله للآخر في غياب صاحبه، إذ أن الناقل لا يكشف بذلك أمراً خفياً على السامع بل ينقل ما رآه. إلا أن بعض

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦ / ٣٣٨.

(٢) سورة النساء: الآية: ١٤٨.

(٣) ظ: الذنوب الكبيرة، عبد الحسين دستغيب، ٢ / ٢٨٠، تفسير الجواهر الحسان، الثعالبي، ٣ / ١٩٠.

العلماء قالوا بعدم الجواز لعل الثاني يكون محتمل للنسيان - وإذا كان الكلام بقصد الإساءة له والانتقاص فهو حرام^(١).

٧. جرح المجروحين من الرواة والشهود وبيان حالهم وتنبيه الناس والمتعلمين من أهل العلم كي لا يترتب أثر شرعي أو عقدي على أقوالهم ورواياتهم.

٨. الاستعانة على تغيير المنكر، ورد المعاصي، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر، فلان يعمل كذا وكذا فازجره عن ذلك ونحو هذا، ويكون مقصوده التوصل الى إزالة المنكر^(٢).

٩. نصح المستشير، فمتى استشاره مسلم في معاملة يريد اجراءها (كالزواج) مع شخص وكان في ذلك الشخص عيب بحيث لو لم يذكره للمستشير لأجرى المعاملة وتورط بضرر ومشقة جاز له بهذه الصورة أن يذكر العيب للمستشير. مع ملاحظة:

أ - إذا لم يكن هتك حرمة الشخص وفضحه أكبر من ذكر العيب.

ب - أن يكون مضطراً لذكر العيب لأجل عدم إيقاع المعاملة، وإذا كان بالإمكان عدم إيقاعها من دون ذكر العيب فهو أفضل كأنه يقول له: أرى الأصلح عدم الشراء^(٣) - وهكذا.

١٠. غيبة الفاسق: المتجاهر بالفسق كمن يشرب المسكر علناً في الطرقات وارتكاب المنكرات، فقد جاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: (إذا ظاهر الفاسق

(١) ظ: أخلاق أهل البيت، مهدي الصدر، ص ٢٧٥.

(٢) ظ: التفسير التبروي، د. فاطمة محمد مارديني، ص ١١٧.

(٣) ظ: الذنوب الكبيرة، دستغيب، ٢/ ٢٨٠.

بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة^(١)، وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال: (من ألقى جلاباب الحياء فلا غيبة له)^(٢).

فيجوز ذكره بما يجاهر به ويحرم ذكره بغيره من العيوب إن لم يكن هناك ما يبيحه.

ويجب أن يُعلم أيضاً أن جواز غيبته (المتجاهر بالفسق) إنما هو في صورة ما لو كان المتجاهر يعترف بأن عمله ذنب، أما لو أظهر لعمله عذراً صحيحاً فإن غيبته غير جائزة مثل أن يفطر في شهر رمضان بحجة أنه مريضاً أو مسافراً أو بأعذار أخرى قابلة للتصديق.

أخيراً فإن الغيبة لمن يجاهر بالمعاصي بالإعلان. وأود التنويه على أن هناك ثلثة من العلماء لم يجيزوا حتى هذا القدر المذكور^(٣).

سادساً: الاستماع إلى الغيبة

إن الاستماع إلى الغيبة محرم، كما إن الاستغابة تكون محرمة بل يظهر في بعض الروايات إن المستمع مثل المغتاب في كل الأمور وجوب التسامح منه، وإنه من الكبائر.

(١) بحار الانوار، المجلسي، ٢٠٤/٧١.

(٢) ظ: الدر المنثور، السيوطي، ٥٧٧/٧.

(٣) فهذا الشوكاني يرد على النووي في صحيح مسلم القائل بالموارد الستة بالجواز أدمجتهن مع باقي ما قاله العلماء الأعلام بالجواز. وللكتير من التفصيل والاطلاع راجع رسالته بهذا المورد. ثلاث رسائل للإمام الشوكاني، رفع الريبة عما يجوز ولا يجوز من الغيبة، ص ٩.

عن النبي محمد ﷺ: (المستمع أحد المغتابين)^(١) وعن الإمام علي عليه السلام: (السامع أحد المغتابين)^(٢) والساكت شريك. ومن أقسامها الخفية الأصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيزيد فيها - كأنه سيتخرج منه الغيبة بهذا الطريق فيقول عجبت مما يقول ما كنت أعلم بذلك إلى الآن ما كنت أعرف من فلان ذلك، يريد بذلك تصديق المغتاب واستدعاء الزيادة منه بالطف والتصديق لها غيبة، بل الاصغاء إليها، بل السكوت عند سماعها^(٣).

وأحياناً تضاف عناوين أخرى على عنوان الغيبة أيضاً فيبعث على ازدياد الفساد والقبح والعقاب، مثل أن يثني المستغيب على المستغاب أمامه ويعرب عن حبه له ويكون هذا نفاق (والعياذ بالله).

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (مَنْ لقي المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسانان من نار)^(٤).

وعن النبي الأعظم ﷺ قال: (مَنْ أذلَّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره، أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق)^(٥).

وقال ﷺ: (مَنْ رد عن عرض أخيه غيبه، كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة)^(١).

(١) بحار الانوار، المجلسي، ٢٢٦/٧٢.

(٢) غرر الحكم، ٢ / ١٢.

(٣) ظ: كشف الريبة عن أحكام الغيبة، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٤) الكافي، الكليني، ٣٤٣/٢.

(٥) بحار الانوار، المجلسي، ٢٢٦/٧٢.

وقال ﷺ: (مَنْ ذَبَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ) (١).

وقال ﷺ: (مَنْ اغْتَيْبَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمَ، فَاسْتَطَاعَ نَصْرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ، خَذَلَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (٢).

وقال ﷺ: (مَا مِنْ رَجُلٍ ذَكَرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمَ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ وَلَمْ يَنْصُرْهُ، إِلَّا أَذَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ ذَكَرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمَ فَنَصْرَهُ، نَصَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (٣).

وقال ﷺ: (مَنْ حَمَى عَرَضَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي الدُّنْيَا بُعِثَ لَهُ مَلَكًا يَحْمِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ النَّارِ) (٤).

وقال ﷺ: (مَنْ تَطَوَّلَ عَلَى أَخِيهِ فِي غَيْبَتِهِ سَمِعَهَا عَنْهُ فِي مَجْلَسٍ فَرَدَهَا، رَدَّ اللَّهُ عَنْهُ أَلْفَ أَلْفٍ مِنْ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ يَرُدَّهَا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى رَدِّهَا، كَانَ عَلَيْهِ كَوْزَرٌ مِنْ اغْتَابِ سَبْعِينَ مَرَّةً) (٥).

وقال الإمام محمد الباقر ؑ: (مَنْ اغْتَيْبَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنَ فَنَصْرَهُ وَأَعَانَهُ، نَصَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرَتِهِ

(١) الكافي، الكليني، ٢٢٦/٧٢.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري، ٢٣٣٩/٣.

(٣) ميزان الحكمة، الريشهري، ٢٣٣٩/٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) مسند احمد، أحمد بن حنبل، ٤٤١ / ٣.

(٦) بحار الأنوار، المجلسي، ٢٢٦/٧٢.

وعونه، إلا أخفضه الله في الدنيا والآخرة^(١)، ولهذه المضامين أخبار كثيرة أخرى حري حري من اطلع عليها ان يلتزم بها لما فيها من ترغيب وترهيب وبيان العواقب والآثار على مستوى الفرد والمجتمع.

سابعاً: كفارة الغيبة

لما كانت الغيبة من الذنوب الكبيرة وجب على المبتلى بها الندم عليها فوراً إذ أنه قد عصى ربه، وبعد الندم القلبي - يستغفر بلسانه - ويصمم على أن لا يعود لمثل هذا الذنب.

وحيث يظهر من بعض الروايات إن الشخص المستغاب يكون صاحب حق على المغتاب فيجب - في صورة الامكان - طلب العفو منه وإرضاءه وذكره بخير مقابل استغابته قبلاً، والأفضل في صورة المستغاب أو تعذر الوصول إليه أو كان طلب العفو مستلزماً لمحذور ما مثل إذا كان المستغاب غير عارف باستغابته فإن عرف ذلك غضب واغتاظ وفي ذلك نقض للغرض وزيادة في الشحناء بين المسلمين وتأزم العلاقات الاجتماعية - ففي مثل هذا الحال يستغفر له ويسأل الله تعالى أن يرضيه - كما جاء في ادعية الصحيفة السجادية في دعاء (٣٩)^(٢)، قال رسول الله ﷺ (كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبت^(٣)).

(١) وسائل الشريعة، الحر العاملي، ٢٩١/١٢.

(٢) الذنوب الكبيرة، سيد عبد الحسين دستغيب، ص ٢٧٨.

(٣) تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، ص ٥٥٧.

قال الحسن: (يكفيه الاستغفار عن الاستحلال) هذا عند التعذر واحتج بخبر كفارة من اغتنبته أن تستغفر له^(١).

والواضح إنه (لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الاصرار)^(٢)، والاكتفاء بالتوبة النصوح في محو تبعات الغيبة، كما يكتفى بها في محو تبعات سائر المعاصي فهو المتعين، لقيام الضرورة، ودلالة الآيات المتظافرة، والروايات المتواترة من الفريقين على أنّ التائب عن ذنبه كمن لا ذنب له^(٣).

وليس المراد بالتوبة هنا هو لقلقة اللسان من غير ندم وخشية من العقاب، وإنما التوبة والاستغفار من ذنب الغيبة يكون على ما يصفه الإمام علي ؑ لقائل قال بحضرته استغفر الله، فقال له ؑ: (تَكَلَّمْتُ أَمْكَ أَتَدْرِي مَا الاسْتِغْفَارُ؟ الاستغفارُ درجةُ العَلِيِّينَ. وهو اسمُ واقعٍ على ستة معانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعه.

والرابع: أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدّي حقها.

(١) تفسير روح المعاني، الآلوسي، ١٦٠/٢٦. ظ: الترغيب والترهيب في الحديث الشريف، زكي

الدين، ٥١١/٣، أخلاق أهل البيت (ع)، السيد مهدي الصدر، ص ٢٧٦.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ٣٥٢/٨.

(٣) ظ: مصباح الفقاهة في المعاملات، السيد الخوئي، ص ٥١٧.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السّحت^(١) فتذبيهُ بالأحزان حتى تلصقَ الجلدَ بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذفته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول استغفر الله^(٢).

ثامناً: علاج الغيبة

ان الطريق في علاج الغيبة وتركها، أن يتذكر أولاً ما تقدم من مفسدها الأخروية ثم يتذكر مفسدها في الدنيا، فإنه قد تصل الغيبة إلى من اغتیب، فتصير منشأة لعداوته أو لزيادة عداوته، فيتعرض للإيذاء من قبله وإهانته. وربما انجر الأمر بينهما إلى ما لا يحمد عقباه وتداركه من الضرب والقتل وأمثال ذلك، وبعد ذلك فليراقب لسانه، ويقدم التروي في كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن تضمن غيبة سكت عنه، وكلف نفسه ذلك على الاستمرار، حتى يرتفع عن نفسه الميل الجلي والخفي إلى الغيبة.

والعمدة في العلاج أن يقطع أسبابها المذكورة، من علاج الغضب والحقد والحسد والاستهزاء والسخرية.

ومن نصائح النبي ﷺ للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري قوله: (... عليك بطول الصمت فإنه مطرده للشيطان وعون لك في أمر دينك ...) (٣)، ويأتي طريق العلاج في الهزل والمطايبة والافتخار والمباهاة، وأما تنزيه النفس بنسبه ما نسب إليه من

(١) السحت بالضم المال من كسب الحرام.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ٤ / ٩٧.

(٣) بحار الانوار، المجلسي، ٢٧٩/٦٨.

الجنائية إلى الغير، فمعالجته أن يعلم أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوق، ومن اغتاب تعرض لمقت الله وسخطه قطعاً، ولا يدري أنه يتخلص من سخط الناس أم لا فيحصل بعمله ذم الله وسخطه تقديراً وينتظر دفع ذم الناس يسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان، وأما تعرضه لمشاركة الغير في الفعل تمهيداً لعذر نفسه، كأن يقول إنني أكلت حرام، لأن فلاناً أيضاً أكل، وقبلت مال السلطان، لأن فلاناً أيضاً قبل، مع أنه أعلم مني، فلا ريب في أنه جهل وسفه، لأنه اعتذار بالاعتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإنه من خالف الله سبحانه لا يقتدى به كائناً من كان، فلو دخل غيره النار وهو يقدر على عدم الدخول فهل يقتدي في الدخول، ولو دخل عُذ سفيهاً أحمق، ففعله معصية، وعذره غيبة وغباه، مجمع بين المعصيتين والحماقة، ومثله كمثل الشاة، إذا نظرت إلى العنز تردى نفسها من الجبل فهي أيضاً تردى نفسها، ولو كان لها لسان ناطق واعتذرت عن فعلها بأن العنز أكيس مني وقد اهلكت نفسها فكذلك فعلت أنا، لكان هذا المغتاب المعتذر يضحك عليها، مع أن حاله مثل حالها ولا يضحك على نفسه.

والعجب أن بعض الأشقياء من الناس، لما صارت قلوبهم عس الشيطان وصرفوا أعمارهم في المعاصي، واشتغلت ذممهم بمظالم الناس بحيث لا يرجى لهم الخلاص مالت نفوسهم الخبيثة إلى انكار المعاد أو التشكيك في أهواله وعقباته من حساب وحشر وعقاب، وهذا التكذيب منهم خسران عظيم وضلال مبين، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١).

(١) سورة يونس، الآية: ٤٥.

ولما وجد الشيطان ذلك الميل منهم خرج من الكمين، ووسوس في صدورهم بأنواع الشكوك والشبهات، حتى ضعّف بها عقائدهم أو أفسدها، ودعاهم في مقام التسويع لأعمالهم الخبيثة ولا يصرحوا بما ارتكز في قلوبهم من أمراض نفسية.

وأما موافقة الاقران (الأصدقاء) فعلاجة أن يتذكر إن الله يسخط عليه ويبغضه إذا اختار رضا المخلوقين على رضاه^(١)، وكيف يرضى المؤمن أن يترك رضا ربه لرضا أراذل الناس؟ وهل هذا إلا كونه تعالى أهون عنده منهم؟! وهذا ينافي الإيمان، ومن ثم الندم يوم القيامة وحينها لا ينفع الندم، قال تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾^(٢).

وأما استتعار الرحمة له على إثمه والتعجب منه والغضب لله عليه، وإن كان كل منها حسناً إلا أنه إذا لم تكن معه غيبة، وأما إذا كانت معه غيبة أحبط أجره وبقيت غيبته إثم. فالعلاج أن يتأمل باعث الرحمة والتعجب والغضب هو إيمان وحماية للدين، وإذا كان معها غيبة أضرت بالإيمان والدين، فاللزام أن يتعجب ويغضب ويترحم لله مع ترك الغيبة وإظهار الإثم والعيب، ليكون مأجوراً غير آثم^(٣).

وهذه الوسائل التي تضمنها النظام الأخلاقي في الإسلام تمكن الإنسان من التحلي بكل مفردات الأخلاق الإسلامية الجيدة والتخلي عن كل أضدادها الرديئة، وتسهم في نقل الأخلاق - من النظرية إلى التطبيق، ومن الدراسة العقلية إلى الممارسة العملية،

(١) الفُنية لطالبي الحق عزّ وجل، عبد القادر الجيلاني، ٣/١٣٠٤. ينظر بداية الهداية، الغزالي، ص ١٢٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٨.

(٣) ظ: جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ٢/٣٢٠، رسالة الحقوق للإمام زين العابدين ع، ص ٣٠، النظم الإسلامية، منير حميد البياتي وآخر، ص ٥٩٩.

وهي وسائل تفتقر إليها الأخلاق الإنسانية في الفلسفات المختلفة وينفرد بها النظام الأخلاقي الإسلامي.

وفي نهاية المطاف التأكيد على أن ذم الغيبة ليس من باب التشريع الإسلامي فحسب، بل هي مرض نفسي يلجأ إليه ضعيف الثقة بنفسه، العاجز الجبان في مواجهة الآخر، الذي يحب أن يكشف عورات الناس ويستمتع بفضحهم، فهو يغتاب ليملاً لؤم نفسه وفراغها، ويتم النقص الذي عنده، فالغيبة تخبر عن نفسية غير سوية، وغير مؤمنة إيمان حقيقي، وهذا يكفي اللبيب لمعرفة مدى رذيلة الغيبة وخطرها.



الخاتمة

في نهاية المطاف يتضح ان الأخلاق في الإسلام منبثقة من عقيدة الإسلام تتضبط بها من جهة وتصب في بوتقة حراسة العقيدة من جهة أخرى، وليست الأخلاق في الإسلام نظريات وفلسفات يتيه فيها أصحابها كما تتيه فيها المجتمعات التي تقع فريسة الافتتان بها.

فلحظنا ان سورة الحجرات مدرسة متكاملة، تربي في ضوئها المؤمنون مع قصرها، وقلة عدد آياتها جاءت شاملة لأحكام وآداب وأوامر ونواه لا تجدها مجتمعة في سورة سواها.

اشتمل النص الكريم -محل البحث- على جملة من الآداب والأخلاق الإسلامية التي لو رُوِعت في المجتمع الإسلامي لأصبحت الأمة قوية والتي منها:

- أمرت الآية الكريمة باجتنباب كثير من الظن حتى لا يقع المؤمن في القليل من المحرم، الذي يستوجب العقوبة ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وإنما حرم قليل الظن لأنه مبني على الكذب والنفاق والإساءة إلى المؤمنين، وقد أمرت الشريعة بحسن الظن بالمسلمين.
- بعد أن حرمت الآية سوء الظن والظن السيء بالأمر باجتنبابه والتباعد عنه، وهجره وتركه، نهت نفس الآية عن جريمة نكراء؛ وهي التجسس والنهي هنا

يفيد التحريم، فالإسلام حرم التجسس بين المؤمنين؛ لأنه يريد أن يحافظ على الأخوة والمودة التي أنشأها ورعاها، فالتجسس إذا فشا في الأمة فإنه يبذر بذور الفتنة على كل صعيد، ويزرع الشك في نفوس الناس، ومن ثم تفقد الثقة بين الناس، ويدب التنازع والتخاصم والتشاحن، وتضعف رابطة الأخوة والمودة، وتصبح لقمة سائغة لأعدائها في الداخل والخارج، ولقد نهى الإسلام عن كل ذلك.

- نهت الآية الكريمة عن الغيبة وحرمتها، من أجل بناء علاقات اجتماعية يكون أساسها الألفة والانسجام بين الناس، لا بد من بناء قاعدة أخلاقية صلبة تحفظ الاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع، وتحمي حقوق الأفراد والجماعات من أي إساءة أو عدوان.

وها أنت أخي القارئ العزيز تجد بين يديك أشمل تفسير للآية الثانية عشر من سورة الحجرات خرج حتى الآن - حسب علمي واستقرائي - ولا أقول إنه أفضل تفسير وأجوده، ولأن الفضل أمر نسبي، فقد يكون الشيء فاضلاً عن وجه ومفضولاً من وجه آخر، وأسأل الله تعالى ألا يحرمني أحد أوجه الفضل، التي تقريني إليه. وقد عرفت أخي القارئ ما في هذه الآية من قراءات وأحكام، وكذلك علمت سبب نزول الآية، وأوجه إعرابها، وتفسير معانيها والآثار التربوية على الفرد والمجتمع، كل ذلك جاء بأسلوب ميسر، لم يجنح إلى التطويل الممل، ولم ينزع إلى الإيجاز المخل، ولكنه كان بين ذلك قواماً.

فَلَا تَعْلَمُ لَهُ دَراةٌ وَلَا دَراةٌ لَلمَ عَمَّا نَحوُ فِلهِ لَلا سَماوِ سَماوِ

أخيراً .. دعوة الى التلاوة والتدبر:

شمولية المنظومة الأخلاقية الإسلامية، بل إن هذه الآية على قصرها وإيجازها قد جمعت مقومات الفلاح والثبات في ضبط المجتمع الإسلامي بما لا يمكن تحقيقه البتة بشتى النظم الوضعية مجتمعة، فما بال المرء لو أنه استقرأ كامل السورة أو القرآن الكريم كله سبراً لباقي التوجيهات الأخلاقية التربوية.

إذ لحظنا ان آية واحدة نبهت من ثلاثة أمور تفكك المجتمع وحذرت من تنغص العيش بين أفرادهِ وألزمت المسلم باجتنابها وعدم الابتعاد عن مضامين الآية الكريمة إذ ان الابتعاد عن هذه الآداب هو انحراف عن توصيات وتعاليم السماء ومن ثم خراب الدنيا والآخرة، فما بالك أخي القارئ الكريم فيمن ابتعد عن تعاليم القرآن المجيد كلها فلا نقاش في أن أعز شيء تملكه الأمة الإسلامية - والبشرية جمعاء - هو هذا القرآن - المعجزة الخالدة للدين الخالد ... لأنه ... النور السماوي ... والدستور الإلهي الذي تكفل لها بإصلاح الدين والدنيا، وضمن خير الآخرة والأولى.

وانظر لكل ذلك يكون حرياً بالمؤمن الذي يرنوا إلى التسامي والتكامل، والصعود أن يعكف على كتاب الله تعالى إناء الليل وأطراف النهار - يتأمل معانيه، ويستلهم مفاهيمه ومن ثم يجسدها سلوكاً في الحياة، ومنهجاً في العمل.

كم أكد الرسول الكريم ﷺ والأئمة الهداة من أبنائه الطاهرين (عليهم السلام) على أهمية تعاهد القرآن ومدارسته، والتزام تلاوته في كل الظروف والأحوال: (وعليك بتلاوة القرآن على كل حال)^(١) .

والملفت أن الشريعة حثت كثيراً على تلاوة آيات الله في البيوت ... وبينت عظيم الثواب، وجزيل العطاء المعد لمن في بيوتهم يُقرأ القرآن.

وهدف الشريعة في ذلك واضح وهو الحرص على عدم الفصل بين البيت والجامع ... أو قل الحرص على مد رقعة المسجد لتحتوي للبيت، والمصنع، والمدرسة والكلية والشارع.

قال الإمام الصادق عليه السلام: (البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيئ لأهل السماء كما يضيئ الكوكب الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين)^(٢).

تصور معي أخي القارئ.. كم يكون واقع مجتمعنا باهراً لو عاش صوت القرآن مصحوباً بالوعي والتدبر من كل بيت محملاً بالخشوع والصفاء مشعاً بالأمن والإيمان.

وكيف يكون مستوى أجيالنا الصاعدة - وبراعمنا الطالعة - وهي تصنع على عين الله ونوره، وهداه، ولا جرم أن لقراءة القرآن الكريم في جميع الأوقات أثر جميل في نفس الإنسان ومشاعره .. ولكن لتلاوته في بواكير الفجر الطالع أثر يختلف اختلافاً جذرياً.

(١) من وصيته عليه السلام للإمام علي (عليه السلام). الوسائل، ٨٣٩/٢.

(٢) الكافي، الكليني، ٤٩٩/٢.

بعد أن عرفنا فضل تلاوة القرآن العظيم تعين القول بأن القراءة التي ورد الحث عليها ليست غاية في نفسها .. كلا، إنما أريد منها أن تكون وسيلة وطريقاً لإدراك معاني كتاب الله، وتمثل مفاهيمه، وتجسيد أهدافه في توجيه النفوس إلى الله عز وجل .. والانتماء إليه والأخذ منه وحده سبحانه وتعالى.

ومن أجل كل ذلك ورد التأكيد على التدبر في القرآن الكريم وقراءته بمنأى عن السطحية والرتابية، والجمود ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١).

وهنا يثور الوجد، أمر المسلمين مع القرآن في يومنا عجب ما فوقه عجب...!

إذ صيروه - وهو الكتاب الذي يحوي نظاماً تريده السماء لحياة الأرض - شارة لذوي العاهات والمتعطلين، ومورداً للمرتزقة والمتسولين يقرأونه على أبواب المساجد، وأرصعة الشوارع للتكسب والانتفاع، وحلوله وهم يعيشون قمة الانحراف إلى صحيفة طويلة تضم القرآن كله في خط دقيق ضمن إطار فاخر من خزف يزينون به غرفهم ومساكنهم ... أو مصاحف ثمينة مزركشة تنام في علب ملفوفة بالحرير ... يتبادلونها في مناسباتهم ... ويعلقونها في متاجرهم وسياراتهم لتجلب الخير والبركة، وتدفع السوء والشرور...!!

أنا لا أدري كيف جعلنا القرآن وهو أمانة الله لدينا، وأعظم شيء بيننا ... كيف جعلناه قريناً للموت وهو ينبوع الحياة ... فصار لا يقرأ إلا في مآتم الموتى وفوق قبورهم...؟! وبعد ... فمن الواجب على المسلمين اليوم - أن يدركوا جيداً بأن بركة القرآن ليست بوضعه في متاجرهم ومساكنهم إنما بوضعه في قلوبهم وأفكارهم^(٢).

(١) سورة محمد: الآية: ٢٤.

(٢) ظ: القرآن ماذا تعرف عنه ؟، المسلماوي، ص ١٩٧.

ويدركوا - كذلك - أن الله لم ينزله ليكون تميّمه في أعناق الصبيان والمعتوهين..
وإنما ليكون منهج الحياة ... ودستور أمه ... وشريعة مجتمع ... ومصدر قوانين
تنظم حياة الناس وتطورهم وتنميتهم وتمنح مداها الأبعد - وتفتح لها أفقها الأرحب.

وخلاصة القول: أن أعظم ما يجب على المسلمين هو أن يقرأوا القرآن ويتلونه
بتحسس وتدبر، وانفتاح عاملين على تطبيقه ... نظاماً ... ومفاهيم ... وتوجيهات ...
وتصورات وبذلك - فقط - يكونون حقاً أمة القرآن الحية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ، لِيُذْكَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وقبل ان اطوي الصفحة ونضع القلم، فهذا جهد المقل، فإن أحسنت فمن الله عِجْلاً
وتوفيقه، وإن أسأت فمن النفس وقصورها، سائلين المولى سبحانه ان يختم بالصالحات
ويسدد الخطوات، وان يجعل ذلك في ميزان الحسنات. يارب آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم



قائمة المصادر

خير ما نبدأ به: القرآن الكريم

١. أخلاق أهل البيت (عليه السلام)، السيد مهدي الصدر، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١م.
٢. الأخلاق في الخطاب القرآني - علاقة الإنسان بالإنسان -، د. محمد كاظم الفتلاوي، مجلة كلية الفقه، جامعة الكوفة، السنة ٦، ٢٠١٠م، العدد ١١.
٣. إرشاد القلوب في المواعظ والحكم، محمد الديلمي، الواعظ المعروف (ت ٤٤٨)، ط الحيدرية، النجف، ١٩٥٥م.
٤. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٧٩م.
٥. أصول الكافي، الكليني محمد بن يعقوب، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٥م.
٦. الاكليل في استنباط التنزيل، السيوطي جلال الدين الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧. إياكم والغيبة، حيدر النقيب، مجلة الكوثر، عدد ٢٧، السنة ٢٠٠١م.
٨. بحار الأنوار، المجلسي محمد باقر، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣م، بيروت.
٩. بداية الهداية وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية، الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق: د. محمد سعود المعيني، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٨م.
١٠. بصائر ذوي التمييز لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة.
١١. تفسير الثعالبي الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، المطبعة الثعالبية، طبع ١٣٢٥.

١٢. التفسير الحديث، محمد عزة دروزه، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ١٩٦٣م.
١٣. تفسير الخازن المسمى كتاب التأويل في معاني التنزيل، الخازن علاء الدين بن علي بن محمد البغدادي، طبع بمطبعة دار الكتب العربية الكبرى، مصر.
١٤. تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي عبد الرحمن جلال الدين (ت ٩١١هـ)، طبع دار الفكر، بيروت.
١٥. تفسير محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٩١٤م)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م.
١٦. تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، ١٩٧٤م.
١٧. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، ط ٢، دار الفكر.
١٨. تفسير القرآن الكريم المسمى السراج المنير، الإمام الخطيب الشربيني، دار المعرفة، طبع ونشر بيروت - لبنان.
١٩. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، الكتاب ١٣، دار الفكر العربي، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٠م.
٢٠. تفسير البحر المحيط وبهامشه البحر الماد من البحر، أبو حيان الأندلسي أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف الغرناطي، الناشر: مكتبة ومطابع النصر الحديث، الرياض.
٢١. تفسير التحرير والتوير، ابن عاشور (ت: ١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ، بيروت.
٢٢. التفسير التربوي - ومضات تربوية من وحي القرآن الكريم -، د. فاطمة محمد مارديني، دار العصماء، سوريا، ٢٠١٣م.
٢٣. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ط ٢، دار إحياء التراث، ١٩٨٥م.

٢٤. تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، العلامة النسفي أبي بركان عبد الله بن أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٥. تفسير مجاهد، مجاهد أبو الحجاج، تحقيق: عبد الرحمن الظاهر بن محمد السورني، طبع على نفقة أمير قطر، قطر.
٢٦. تفسير مفاتيح الغيب، الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني، ط ٢، دار الكتب العلمية، طهران.
٢٧. ثلاث رسائل للإمام الشوكاني والريبة عما يجوز ولا يجوز من الغيبة، الشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ)، نشر وتوزيع: مكتب القيروان، ١٩٨٩م طبع أوفسيت جمال العبدلي.
٢٨. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري أبي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، ط ٢، بالأوفسيت، دار المعرفة، بيروت.
٢٩. جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ط ٤، مطبعة النجف، النشر والتعليق عليه والتصحيح: السيد المرحوم محمد كلانتر.
٣٠. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري (ت ٧٧٧هـ)، مصور عن طبعة دار الكتب بالقاهرة، ١٩٦٧م.
٣١. الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٠هـ.
٣٢. الدين وتهذيب السلوك، السيد حسين الصدر، طبع بغداد.
٣٣. الذنوب الكبيرة، السيد عبد الحسين دستغيب، بيروت - لبنان.
٣٤. رسالة الحقوق، الإمام زين العابدين عليه السلام، تحقيق: حازم ناظم فاضل، طبع شركة الشرق للطباعة، بغداد، البتاوين، ٢٠٠٠م.
٣٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي أبي الفضل شهاب الدين البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، طبع إدارة للطباعة المنيرية، مصر.

٣٦. زبدة التفسير من فتح القدير، محمد سليمان عبد الله الأشقر، ط٢، ١٩٨٨م.
٣٧. الصحيفة السجادية الكاملة، أدعية الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام، نشر الكتب العلمية، بغداد.
٣٨. صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، ط٣، طبع دار الفكر، ١٩٨٢م.
٣٩. الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، الشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق: د. فرح توفيق وليد.
٤٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢، مصر، ١٩٦٤م.
٤١. الفقه للمغتربين، إعداد عبد الهادي السيد محمد تقي الحكيم، وفق فتاوي السيد السيستاني، ط٣، ١٩٩٩م، دار التجديد، بيروت.
٤٢. في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٧١م.
٤٣. القرآن ماذا تعرف عنه؟، مجيد المسلماوي، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٩م.
٤٤. الكبائر من القرآن والسنة، السيد جعفر السيد باقر اليعقوبي الموسوي، النجف، مطبعة النبراس، ١٩٩٤م.
٤٥. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي محمد بن أحمد، ١٣٥٥هـ.
٤٦. كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكّي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محي الدين رمضان.
٤٧. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري جاد الله محمود بن عمر، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٨. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٩. مختار الصحاح، الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٣م.
٥٠. مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٧٩م.
٥١. معاني القرآن، الفراء أبو زكريا يحيى ابن زياد (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٥٥م.
٥٢. معجم القراءات القرآنية، إعداد: د. أحمد مختار عمر و د. عبد العال سالم مكرم، ط١، ١٩٨٥م.
٥٣. مناهج المفسرين، د. محمد كاظم الفتلاوي، دار حدود، بيروت، ط٢، ٢٠٢٠م.
٥٤. منهاج القاصدين، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، قدّم له وطبعه: علي حسين علي عبد الحميد.
٥٥. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧م.
٥٦. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٣٣هـ)، تصحيح: علي محمد الضباع، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
٥٧. النظم الإسلامية (كتاب منهجي)، د. منير حميد البياني وآخر، جامعة بغداد، مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٧م.
٥٨. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، منشورات مكتبة النهضة، بغداد.
٥٩. وسائل الشيعة، الحر العاملي محمد بن الحسن، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

فهرست

مقدمة	٧
الفصل الأول: في رحاب سورة الحجرات	١٥
أولاً: اسم السورة	١٥
ثانياً: مضمون السورة العام	١٧
ثالثاً: فضل سورة الحجرات	١٨
رابعاً: تناسب السور لما قبلها وما بعدها وآخرها بأولها	١٩
خامساً: القراءات	٢١
سادساً: أسباب النزول	٢٤
سابعاً: الاعراب	٢٥
ثامناً: اللغة والبلاغة	٢٨
الفصل الثاني: البيان التحليلي	٣٥
ومضة في نداء (يا أيها الذين آمنوا)	٣٥
علاقة الإيمان بالأخلاق	٣٧
أولاً: سوء الظن	٣٩
ثانياً: التجسس	٤٢
ثالثاً: الغيبة	٤٦
الفصل الثالث: الآثار التربوية في (سوء الظن والتجسس والغيبة)	٥٣
أولاً: سوء الظن	٥٣

معنى الظن لغة واصطلاحاً:	٥٣
من آثار سوء الظن على الفرد والمجتمع	٥٣
أنواع الظن.....	٥٥
الفرق بين الفراسة وسوء الظن	٥٧
طرق علاج سوء الظن	٥٨
ثانياً: التجسس	٦٠
كتمان الاسرار لماذا؟!	٦٢
التنقيب في الاسرار لماذا؟!.....	٦٢
وسائل التجسس	٦٣
من هدي الرسالة	٦٤
استثناءات في حرمة التجسس	٦٥
١.تجسس الدولة على موظفيها في مجال عملهم	٦٦
٢.التجسس على الأعداء	٦٦
٣.التجسس على الأشرار ومن يسيئون لأمن الناس	٦٦
أنواع التجسس	٦٨
ثالثاً: الغيبة:	٧٠
الغيبة لغة واصطلاحاً.....	٧٠
بواعث الغيبة	٧٢
ذم الغيبة	٧٤
ضروب الغيبة	٨٠
مسوغات الغيبة	٨١
الاستماع الى الغيبة	٨٤
كفارة الغيبة	٨٧

٨٩	علاج الغيبة
٩٣	الخاتمة
٩٥	دعوة الى التلاوة والتدبر
٩٩	قائمة المصادر
١٠٨	ترجمة الخلاصة باللغة الإنكليزية



التصميم والإخراج الفني

مكتب محمد الخزرجي ٠٧٨٠٠١٨٠٤٥٠

العراق - النجف الأشرف

Educational interpretation

Educational, social and preventive lights
inspired by the Holy Quran
- Verse 12 of Surat Al-Hujurat as a model -

All the teachings of the Noble Qur'an and the Sunnah of the infallible, peace be upon him, represent in their content a single way in building a Muslim man in a behavioral and psychological construct, that is, outwardly and inwardly, and verse 12 of Surat Al-Hujurat is one of the organizing rings of man's concerns and feelings as well as his apparent behavior in avoiding (mistrust, espionage and backbiting) and this research highlighted On the educational and ethical side of this verse in an analytical study.

It should be noted that this book is in the origin of my graduate research at the University of Baghdad / College of Education (Ibn Rushd) 2001 AD. He sees the light today, after slight changes, while remaining in the same style of proposition, so every time has its beauty.

Muhammad Kazim Hussain Al-Fatlawy / Baghdad

